الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ
عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ
يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ
أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ
مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾
سُورَةُ النَّحْلِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ
﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ
الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَامَ
خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ
﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾
٢٦٧

معانى الكلمات :

عضين : أجزاء وأعضاء .

فاصدع : فاجهر .

اليقين : الموت المتيقن .

أمر الله : الساعة أو العذاب .

بالروح : بالوحى .

خصيم : شديد الخصومة بالباطل .

تريحون : تردونها آخر النهار .

تسرحون : تخرجونها أول النهار .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف أن الرسول ﷺ معصوم بالله من أذى الناس وشرهم .

٢ ـ أن نعلم أن سنة الله تمضى وفق مشيئته ، لا يقدمها استعجال ولا يؤخرها رجاء .

٣ ـ أن نستشعر قدرة الله ، ونتعرف على بعض مظاهرها .

المحتوى التربوى :

يتجه الخطاب إلى الرسول ﷺ أن يمضى فى طريقه ، يجهر بما أمره الله أن يبلغه ، ويسمى هذا الجهر صدعاً ـ أى شقا ـ دلالة على القوة والنفاذ ، لا يقعده عن الجهر والمضى شرك مشرك فسوف يعلم المشركون عاقبة أمرهم ، ولا استهزاء مستهزئ فقد كفاه الله شر المستهزئين ، والرسول ﷺ يستر لا يملك نفسه أن يضيق صدره وهو يسمع الشرك بالله ، ويسمع الاستهزاء بدعوة الحق ، فيغار على الدعوة ويغار على الحق ، ويضيق بالضلال والشرك لهذا يؤمر أن يسبح بحمد ربه ويعبده ، ويلوذ بالتسبيح والحمد والعباد من سوء ما يسمع من القوم ولا يفتر عن التسبيح بحمد ربه طوال الحياة ، حتى يأتيه اليقين الذى ما بعده يقين ـ الأجل ـ فيمضى إلى جوار ربه الكريم .

يقول صاحب الظلال : « إن الصدع بحقيقة هذه العقيدة ، والجهر بكل مقوماتها وكل مقتضياتها ضرورة فى الحركة بهذه الدعوة ؛ فالصدع القوى النافذ هو الذى يهز الفطرة الغافية ، ويوقظ المشاعر المتلبدة ، ويقيم الحجة على الناس ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ (الأنفال : ٤٢) أما التدسس الناعم بهذه العقيدة ، وجعلها عضين يعرض الداعية منها جانباً ويكتم جانبا ؛ لأن هذا الجانب يثير الطواغيت أو يصد الجماهير ، فهذا ليس من طبيعة الحركة الصحيحة بهذه العقيدة القوية ، والصدع بحقيقة هذه الحقيقة لا يعنى الغلظة المنفرة ، والخشونة وقلة الذوق والجلافة .. » .

سورة النحل

تلم هذه السورة بحقيقة الوحدانية الكبرى التى تصل بين دين إبراهيم عليه السلام ودين محمد ﷺ ، وتلم بحقيقة الإرادة الإلهية والإرادة البشرية فيما يختص بالإيمان والكفر والهدى والضلال ، وتلم بوظيفة الرسل ، وسنة الله فى المكذبين لهم ، وتلم بموضوع التحليل والتحريم وأوهام الوثنية حول هذا الموضوع ، وتلم بالهجرة فى سبيل الله ، وفتنة المسلمين فى دينهم ، والكفر بعد الإيمان ، وجزاء هذا كله عند الله ، ثم تضيف إلى موضوعات العقيدة موضوعات المعاملة : العدل والإحسان والإنفاق والوفاء بالعهد ، وغيرها من موضوعات السلوك القائم على العقيدة ، وهكذا هى مليئة حافلة من ناحية الموضوعات التى تعالجها » .

وتبدأ السورة بالتوحيد ، وأدواته هى آيات الله فى الخلق ، وآياته فى النعمة ، وعلمه الشامل فى السر والعلانية ، والدنيا والآخرة ، ولقد كان مشركو مكة يستعجلون الرسول ﷺ أن يأتيهم بعذاب الدنيا أو عذاب الآخرة ، وكلما امتد بهم الأجل ولم ينزل بهم العذاب زادوا استعجالا ، وزادوا استهزاء ، وزادوا استهتاراً ، وحسبوا أن محمداً ﷺ يخوفهم ما لا وجود له ولا حقيقة ؛ ليؤمنوا له ويستسلموا ، ولم يدركوا حكمة الله فى إمهالهم ورحمته فى إنظارهم ، ولم يحاولوا تدبر آياته فى الكون ، وآياته فى القرآن ، وجاء مطلع السورة حاسماً جازما : ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ يوحى بصدور الأمر وتوجه الإرادة ، وهذا يكفى لتحققه فى الموعد الذى قدره الله لوقوعه ، فلا تستعجلوه فإن سنة الله تمضى وفق مشيئته ، لا يقدمها استعجال ولا يؤخرها رجاء ، فأمر الله بالعذاب أو بالساعة قد قضى وانتهى ، وأما ما هم عليه من شرك بالله الواحد ، وتصورات مستمدة من هذا الشرك فقد تنزه الله عنه وتعالى عما يشركون به بكل صوره وأشكاله ، الناشئة عن هبوط فى التصور والتفكير .

والله ـ عز وجل ـ لا يدع الناس إلى ضلالهم وأوهامهم إنما هو ينزل عليهم من السماء ما يحييهم وينجيهم ، فهو ينزل الملائكة بالوحى أو بالقرآن ، وهو من الوحى ؛ وسمى الوحى والقرآن روحا لأنه يقوم فى الدين مقام الروح فى الجسد ، أو لأنه يحيى القلوب الميتة ، والملائكة

تنزل على الأنبياء لينذروا بالوحدانية فى الألوهية ، روح العقيدة ، وحياة النفس ، ومفرق الطريق بين الاتجاه المحيى والاتجاه المدمر ، فالنفس التى لا توحد المعبود نفس حائرة هالكة ؛ ولذا كان الإنذار ليتقى الناس عقوبة الله لمن خالف أمره وعبد غيره .

ثم يأخذ فى عرض الآيات ـ آيات الخلق الدالة على وحدانية الخالق ، وآيات النعمة الدالة على وحدانية المنعم ، يعرضها فوجاً فوجاً ، ومجموعة مجموعة بادئا بخلق السموات والأرض وخلق الإنسان ، فيخبر ـ تعالى ـ عن خلقه العالم العلوى وهو السموات ، والعالم السفلى وهو الأرض بما حوت ، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث ، ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره ، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له ، فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له .

ثم نبه على خلق جنس الإنسان وأنه من نطفة ضعيفة مهينة ، فلما استقل ودَرَج إذا هو يخاصم ربه ـ تعالى ـ ويكذبه ، ويحارب رسله ، وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضداً .

ويأخذ السياق فى استعراض خلق الله الذى سُخر للإنسان ، ويبدأ بالأنعام ، وهى الإبل والبقر والغنم ، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع ، من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون ، ومن ألبانها يشربون ، ويأكلون من أولادها ، والقرآن إذ يعرض هذه النعمة هنا ينبه إلى ما فيها من تلبية لضرورات البشر ، وتلبية لأشواقهم كذلك، ففى الأنعام دفء ومنافع وأكل وشرب ـ كما أشرنا ، وفيها كذلك جمال عند الإراحة فى المساء وعند السروح فى الصباح ، جمال الاستمتاع بمنظرها فارهة رائعة صحيحة سمينة ، وأهل الريف يدركون هذا المعنى بأعماق نفوسهم ومشاعرهم أكثر مما يدركه أهل المدينة .

قال النسفى : « منَّ الله تعالى بالتجمل بها كما منّ بالانتفاع بها ؛ لأنه من أغراض أصحاب المواشى ؛ لأن الرعيان إذا روحوها بالعشى وسرحوها بالغداة تزينت بإراحتها وتسريحها الأفنية وفرحت أربابها وأكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس.. » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ أهمية الاشتغال بذكر الله ، وتحميده وتسبيحه ، وعبادته التى هى الصلاة .

٢ ـ الله ـ تعالى ـ منزه عن كل نقص وعن الشريك وهو المستقل بالخلق وحده ، ويستحق أن يعبد وحده دون سواه .

٣ ـ فى جميع مخلوقات الله دلائل على قدرته ووحدانيته وفيها منافع كثيرة للناس .

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ
ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ
وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾
وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ
شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم
بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾
وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ
مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟
مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ
وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾
٢٦٨

معانى الكلمات :

أثقالكم : أمتعتكم الثقيلة الحمل .

بشق الأنفس : بمشقتها وتعبها .

قصد السبيل : بيان الطريق الواضح المستقيم .

جائر : مائل عن الحق منحرف عنه .

تسيمون : ترعون دوابكم .

ذرأ : خلق وأبدع .

مواخر : تشق الماء .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على بعض دلائل قدرة الله ـ تعالى .

٢ ـ أن نعلم أن هناك من مخلوقات الله ما لم يصل إليه العقل البشرى .

٣ ـ أن نؤمن أن طريق الحق يوصل إلى مرضاة الله ـ تعالى .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فى استعراض خلق الله الذى سخره للإنسان فيذكر أن من الأنعام من تحمل الأحمال المثقلة التى تعجزون عن نقلها إلى بلد بعيدة لا يصل إليها المريد إلا بعد جهد جهيد ، وذلك فى الحج والعمرة والغزو والتجارة ، وما جرى مجرى ذلك ، تستعملونها فى أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل ، ولهذا قال هاهنا بعد تعداد هذه النعم : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أى ربكم الذى قيض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم .

وفى الخيل والبغال والحمير تلبية للضرورة فى الركوب ، وتلبية لحاسة الجمال فى الزينة ، وهذه اللفتة لها قيمتها فى بيان نظرة القرآن ونظرة الإسلام للحياة، فالجمال عنصر أصيل فى هذه النظرة ،

وليست النعمة هى مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب ، بل تلبية الأشواق الزائدة على الضرورات ، تلبية حاسة الجمال ووجدان الفرح والشعور الإنسانى المرتفع على ميل الحيوان وحاجة الحيوان .

ويعقب السياق بما يجعل المجال مفتوحاً فى التصور البشرى لتقبل أنماط جديدة من أدوات الحمل والنقل والركوب والزينة ، فلا يغلق تصورهم خارج حدود الهيئة ، وخارج حدود الزمان الذى يظلهم ، فوراء الموجود فى كل مكان وزمان صور أخرى ، يريد الله للناس أن يتوقعوها فيتسع تصورهم وإدراكهم ، ويريد لهم أن يأنسوا بها حين توجد أو حين تكشف فلا يعاودها ولا يجمدوا دون استخدامها والانتفاع بها ، ولا يقولوا : إنما استخدم آباؤنا الأنعام والخيل والبغال والحمير فلا نستخدم سواها ، وإنما نص القرآن على هذه الأصناف فلا نستخدم ماعداها .

يقول صاحب الظلال : « إن الإسلام عقيدة مفتوحه مرنة قابلة لاستقبال طاقات الحياة كلها، ومقدرات الحياة كلها ، ومن ثم يهيئ القرآن الأذهان والقلوب لاستقبال كل ما تتمخض عنه القدرة ، ويتمخض عنه العلم ، ويتمخض عنه المستقبل ، استقباله ـ بالوجدان الدينى المتفتح المستعد لتلقى كل جديد فى عجائب الخلق والعلم والحياة » .

ولما ذكر فى هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها ، التى يركبونها ويبلغون عليها حاجة فى صدورهم ، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة ـ شرع فى ذكر الطرق التى يسلكها الناس إليه ، فبين أن الحق منها ما هى موصلة إليه ، فقال : إن طريق الحق على الله ، فإن ثم طرقا تسلك إليه ، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق ، وهى الطريق التى شرعها ورضيها وعداها مسدودة ، والأعمال فيها مردودة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ أى : حائد مائل زائغ عن الحق ، ثم أخبر أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئة ، ولكنه شاء أن يخلق الإنسان مستعداً للهدى والضلال ، وأن يدع لإرادته اختيار طريق الهدى أو طريق الضلال ، فكان منهم من يسلك السبيل القاصد ، ومنهم من يسلك السبيل الجائر ، وكلاهما لا يخرج على مشيئته الله ، التى قضت بأن تدع للإنسان حرية الاختيار .

ولما ذكر ـ سبحانه ـ ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب ، شرع فى ذكر نعمته عليهم فى إنزال المطر من السماء عما هم فيه بُلْغَة ومتاع لهم ولأنعامهم ، فقال : ﴿ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾ أى : جعله عذبا زلالا ، يسوغ لكم شرابه ، ولم يجعله ملحا أجاجا ، وأخرج لكم به شجراً ترعون فيه أنعامكم ، ومنه الإبل السائمة ، والسوم : الرعى ، والزروع التى يأكل منها الإنسان مع الزيتون والنخيل والأعناب ، وغيرها من أشجار الثمار يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد ، على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها ، والذين يتفكرون هم الذين يدركون

حكمة التدبير ، وهم الذين يربطون بين ظاهرة كظاهرة المطر وما ينشئه على الأرض من حياة وشجر وزروع وثمار وبين النواميس العليا للوجود ، ودلالتها على الخالق ، وعلى وحدانية ذاته ، ووحدانية إرادته، ووحدانية تدبيره، أما الغافلون فيمرون على مثل هذه الآية فى الصباح والمساء ، فى الصيف والشتاء فلا توقظ تطلعهم ، ولا تثير استطلاعهم ، ولا تستجيش ضمائرهم إلى البحث عن صاحب هذا النظام الفريد .

وينبه ـ تعالى ـ عباده على آياته العظام ، ومننه الجسام ، فى تسخيره الليل والنهار يتعاقبان ، والشمس والقمر يدوران ، والنجوم الثوابت والسيارات فى أرجاء السموات نوراً وضياء للمهتدين بها فى الظلمات ، وكل منها يسير فى فلكه الذى جعله الله ـ تعالى ـ فيه ، يسير بحركة مقدرة، لا يزيد عليها ولا ينقص منها، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسييره ، وفى هذا دلالات على قدرة الله الباهرة وسلطانه العظيم لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه .

ونبه ـ سبحانه ـ على ما خلق فى الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة من الحيوانات والمعادن والنباتات على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وما فيها من المنافع والخواص ، وفى ذلك لآية ودليل لقوم يذكرون ولا ينسون أن يد القدرة هى التى خبأت لهم هذه الكنوز ، فيشكرون الله ـ عز وجل .

ويخبر ـ تعالى ـ عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج ، ويمتن على عباده بتذليله لهم ، وتيسيرهم للركوب فيه ، وجعله السمك والحيتان فيه ، وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها فى الحل والإحرام ، وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة ، وتسهيله للعباد استخراجها من قرارها حلية يلبسونها ، وتسخيره البحر لحمل السفن التى تمخره وتشقه بجؤجئها وهو صدرها المسنم ـ الذى أرشد العباد إلى صنعتها ، وهداهم إلى ذلك ، إرثا عن أبيهم نوح عليه السلام ، ويوجهنا السياق أمام مشهد البحر والفلك تشق عبابه ـ إلى ابتغاء فضل الله ورزقه ، وإلى شكره على ما سخر من الطعام والزينة والجمال فى ذلك الملح الأجاج .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن نؤمن بقدرة الله ـ تعالى ـ فيما نشاهده فى هذا الكون .

٢ ـ لا يوصل إلى الله ومرضاته إلا طريق الحق ، وهى طريق الإسلام .

٣ ـ المياه من النعم العظيمة التى يجب أن نصونها ، ونحافظ عليها من التلوث والإسراف .

٤ ـ الحث على طلب الرزق والسعى على المعاش وشكر الله على نعمه .

وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا
لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ
﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن
تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ
أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ
فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ
﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ
لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ
قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً
يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا
سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ
مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

معانى الكلمات :

رواسى : جبالا ثوابت .

تميد : تتحرك وتضطرب .

علامات : معالم للطرق تهتدون بها .

لا تحصوها : لا تطيقوا حصرها .

لا جرم : لا محالة .

أساطير الأولين: أباطيل السابقين فى كتبهم.

أوزارهم : آثامهم وذنوبهم .

القواعد : العمد والدعائم والأساس .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على بعض دلائل قدرة الله ـ تعالى ـ فيما نشاهده فى هذا الكون .

٢ـ أن نعلم أن أى عاقل لا يمكن أن يسوى بين الله ـ تعالى ـ وبين من هو دونه من المخلوقات.

٣ ـ أن نعلم أن المرء سوف يتحمل خطيئة ضلاله فى نفسه وخطيئة إغوائه لغيره ، واقتداء غيره به .

المحتوى التربوى :

يذكر الله ـ تعالى ـ الأرض وما جعل فيها من الرواسى الشامخات ، والعلم الحديث يعلل وجودها ، ولكنه لا يذكر وظيفتها التى يذكرها القرآن هنا ، يعلل وجودها بنظريات كثيرة متعارضة أهمها أن جوف الأرض الملتهب يبرد فينكمش فتتقلص القشرة الأرضية من فوقه ، وتتجعد فتكون الجبال والمرتفعات والمنخفضات ، ولكن القرآن يذكر أنها تحفظ توازن الأرض ؛ لتقر الأرض ولا تضطرب بما عليها من الحيوان فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك .

وفى مقابل الجبال الرواسى يوجه النظر إلى الأنهار الجوارى ، والسبل السوالك ، والأنهار ذات علاقة طبيعية فى المشهد بالجبال ، ففى الجبال فى الغالب تكون منابع الأنهار ، حيث مساقط ـ الأمطار ، والسبل ذات علاقة بالجبال والأنهار ، وذات علاقة كذلك بجو الأنعام والأحمال والانتقال ، وإلى جوار ذلك معالم الطرق التى يهتدى بها السالكون فى الأرض من جبال ومرتفعات ومنفرجات ، وفى السماء من النجم الذى يهدى السالكين فى البر والبحر سواء .

ثم قال ـ تعالى منبها على عظمته ، وأنه لا تنبغى العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان ، التى لا تخلق شيئا ، بل هم يخلقون ، ولهذا قال : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ ، ويأتى التعقيب يجىء فى أوانه ، والنفس متهيئة للإقرار بمضمونه، فهل هنالك إلا جواب واحد : لا وكلا : أفيجوز أن يسوى إنسان فى حسه وتقديره ، بين من يخلق ذلك الخلق كله ، ومن لا يخلق ـ لا كبيراً ولا صغيرا ؟ وهذا الأمر يحتاج إلى أكثر من التذكر ، فيتضح الأمر ويتجلى اليقين .

ثم نبههم الله ـ تعالى ـ على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم ، فالله ـ تعالى ـ يتجاوز عنا ، ولو طالبنا بشكر جميع نعمه لعجزنا عن القيام بذلك ، ولو أمرنا به لضعفنا وتركنا ، ولو عذبنا لعذبنا وهو غير ظالم لنا ، ولكنه غفور رحيم ، يغفر الكثير ويجازى على اليسير ، والخالق يعلم ما خلق يعلم الخافى والظاهر ، فكيف يسوونه فى حسهم وتقديره هم بتلك الآلهة المدعاة ، وهم لا يخلقون شيئاً ولا يعلمون شيئا ، بل إنهم لأموات غير قابلين للحياة على الإطلاق ، ومن ثم فهم لا يشعرون .

يقول صاحب الظلال : « والإشارة هنا إلى البعث وموعده فيها تقرير أن الخالق لابد أن يعلم موعد البعث ، لأن البعث تكملة للخلق ، وعنده يستوفى الأحياء جزاءهم على ما قدموا ، فالآلهة التى لا تعلم متى يبعث عبادها هى آلهة لا تستحق التأليه ، بل هى سخرية الساخرين ، فالخالق يبعث مخاليقه ويعلم متى يبعثهم على التحقيق » .

ويقرر السياق وحدة الألوهية،ويعلل عدم إيمان الذين لا يؤمنون بالآخرة بأن قلوبهم منكرة، فالجحود صفة كامنة فيهم تصدهم عن الإقرار بالآيات البينات ، وهم مستكبرون ، فالاستكبار يصدهم عن الإذعان والتسليم ، ويجمع السياق بين الإيمان بوحدة الله والإيمان بالآخرة ، بل يجعل إحداهما دالة على الأخرى لارتباط عبادة الله الواحد بعقيدة البعث والجزاء ، فبالآخرة تتم حكمة الخالق الواحد ، ويتجلى عدله فى الجزاء ، والله الذى خلق هؤلاء الكافرين يعلم ما يسرون وما يعلنون ، يعلمه دون شك ولا ريب ويكرهه فيهم ، والقلب المستكبر لا يرجى له أن يقتنع أو يسلم ، ومن ثم فهم مكرهون من الله لاستكبارهم الذى يعلمه من يعلم حقيقة أمرهم .

وهؤلاء المستكبرون ذوو القلوب المنكرة التى لا تقتنع ولا تستجيب إذا سئلوا عما أنزل الله لم يجيبوا الجواب الطبيعى المباشر ، فيتلوا شيئاً من القرآن أو يلخصوا فحواه ، فيكونوا أمناء فى

النقل ولو لم يعتقدوه ، إنما هم يعدلون عن الجواب الأمين فيقولون عن القرآن ما هو إلا : حكايات وهمية حافلة بالخرافة ، هكذا يصفون هذا القرآن الذى يعالج النفوس والعقول ، ويعالج أوضاع الحياة وسلوك الناس وعلاقات المجتمع وأحوال البشر فى الماضى والحاضر والمستقبل ، ويؤدى بهم ذلك الإنكار والاستهتار إلى حمل ذنوبهم وشطر من ذنوب الذين يضلونهم بهذا القول ، ويصدونهم عن القرآن والإيمان وهم جاهلون به لا يعلمون حقيقته ، وبئس شيئا يزورونه ذلك .

وقد كانت حرب داعية منظمة تديرها قريش على الدعوة ، ويديرها أمثال قريش فى كل زمان ومكان من المستكبرين الذين لا يريدون الخضوع للحق والبرهان ؛ لأن استكبارهم يمنعهم من الخضوع للحق والبرهان فهؤلاء المستكبرون من قريش ليسوا أول من ينكر ، وليسوا أول من يمكر ، والسياق يعرض عليهم نهاية الماكرين من قبلهم ، ومصيرهم يوم القيامة ، بل مصيرهم منذ مفارقة أرواحهم لأجسادهم حتى يلقوا فى الآخرة جزاءهم، والتعبير يصور هذا المكر فى صورة بناء ذى قواعد وأركان وسقف ، إشارة إلى دقته وإحكامه ومتانته وضخامته ، ولكن هذا كله لم يقف أمام قوة الله وتدبيره ، فقلع الله بنيانهم من قواعده وأسسه ، فهدمه عليهم حتى أهلكهم ، والإتيان يتجوز به عن الإهلاك ، وهو مشهد للتدمير الكامل الشامل ، يطبق عليهم من فوقهم ويزلزلهم من تحت أرجلهم فالقواعد التى تحمل البناء تتحطم وتتهدم من أساسها والسقف يخر عليهم من فوقهم فيطبق عليهم ويدفنهم ، وإذا البناء الذى بنوه وأحكموه واعتمدوا على الاحتماء فيه ، إذا هو مقبرتهم التى تحتويهم ، ومهلكتهم التى تأخذهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، وهو الذى اتخذوه للحماية ولم يفكروا أن يأتيهم الخطر من جهته .

إنه مشهد كامل للدمار والهلاك ، وللسخرية من مكر الماكرين وتدبير المدبرين ، الذين يقفون لدعوة الله ، ويحسبون مكرهم لا يرد ، وتدبيرهم لا يخيب ، والله من ورائهم محيط ، وهو مشهد مكرر فى الزمان قبل قريش وبعدها ، ودعوة الله ماضية فى طريقها مهما يمكر الماكرون ، ومهما يدبر المدبرون ، وهذا يقع فى الدنيا ، وهكذا يضرب الله مثلا لهؤلاء الذين يحتالون كل حيلة فى إضلال الناس وإحالتهم إلى الكفر بكل وسيلة ، ويبين ما يفعل بهم فى الدنيا .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ لا ينبغى العبادة إلا لله ـ تعالى ـ دون ما سواه ؛ لأنه هو الذى يخلق وغيره مخلوقون .

٢ ـ الله ـ تعالى ـ يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر ، وسيجزى كل عامل بعمله يوم الحساب .

٣ ـ كل إنسان ضلَّ عن الحق وأضل غيره ، فسوف يتحمل ذنبه وذنب إغوائه غيره ، ولا يخفف عمن أطاعه من العذاب شيئاً .

ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ
كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ
ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوًى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ
لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى
هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ
﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا
مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ
ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ
سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾
٢٧٠

معانى الكلمات :

يخزيهم : يذلهم ويهينهم بالعذاب .

تشاقون فيهم: تخاصمون وتعادون الأنبياء فيهم .

الخزى: الذل والهوان .

السوء : العذاب .

فألقوا السلم : فأظهروا الاستسلام .

مثوى المتكبرين : مأواهم ومقامهم ومنزلهم .

طيبين : طاهرين من دنس الشرك .

حاق بهم: نزل بهم العذاب جزاء كفرهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف أن الخزى من الله ـ تعالى ـ يوم القيامة لأهل الشرك به والمعاصى .

٢ ـ أن نؤمن بقدرة الله واستسلام الظلمة عند الموت وانهزامهم وكذبهم .

٣ ـ أن نعلم أن البشرى لأهل الإيمان والتقوى عند الموت ، وعند القيام من القبور بالنعيم المقيم فى جوار رب العالمين .

المحتوى التربوى :

يرتسم مشهد من مشاهد القيامة يقف فيه هؤلاء المستكبرون الماكرون موقف الخزى ، وقد انتهى عهد الاستكبار والمكر ، وجاؤوا إلى صاحب الخلق والأمر ، يسألهم سؤال التبكيت والتأنيب : أين شركائى الذين كنتم تخاصمون من أجلهم الرسول والمؤمنين ، وتجادلون فيهم المقرين والموحدين ؟

ويسكت القوم من خزى لتنطلق ألسنة الذين أوتوا العلم من الملائكة والرسل والمؤمنين ، وقد أذن الله لهم أن يكونوا فى هذا اليوم متكلمين ظاهرين ، مخبرين عن الحق فى الدنيا والآخرة ، فيقولون حينئذ : إن الفضيحة والعذاب اليوم بمن كفر بالله ، وأشرك به ما لا يضره ولا ينفعه .

ويعود السياق بهم خطوة قبل خطوة القيامة ، يعود بهم إلى ساعة الاحتضار ، والملائكة تتوفاهم ظالمين لأنفسهم بما حرموها من الإيمان واليقين ، وبما أوردوها موارد الهلاك ، وبما قادوها فى النهاية إلى النار والعذاب ، ويرسم مشهدهم فى ساعة الاحتضار ، وهم قريبو عهد بالأرض ، وما لهم فيها من كذب ومكر وكيد ، فإذا هم قد أظهروا السمع والطاعة والانقياد ، وإذا هم مستسلمون لا يهمون بنزاع أو خصام ، إنما يلقون السلم ويعرضون الاستسلام ، ثم يكذبون فيقولون:﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ﴾ وهو مشهد مخز وموقف مهين لأولئك المستكبرين.

ويجيئهم الجواب : ﴿ بَلَىٰٓ ﴾ من العليم بما كان منهم ، فلا سبيل إلى الكذب والمغالطة والتمويه ، ويجيئهم الجزاء جزاء المتكبرين ، بأن يدخلوا أبواب جهنم مخلدين فيها ، ولبئس المقيل والمقام والمكان من دار هوان ، لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله ، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم ، ويأتى أجسادهم فى قبورهم من حرها وسمومها ، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم فى أجسادهم ، وخلدت فى نار جهنم .

وعلى الجانب الآخر الذين اتقوا يقابلون المنكرين المستكبرين فى المبدأ والمصير ، فالمتقون يدركون أن الخير هو قوام هذه الدعوة ، وقوام ما أنزل ربهم من أمر ونهى وتوجيه وتشريع ، فيلخصون الأمر كله فى كلمة : ﴿ قَالُواْ خَيْرًا ﴾ ثم يفصلون هذا الخير حسبما علموا مما أنزل الله ، فيقولون : من أحسن عمله فى الدنيا أحسن الله إليه فى الدنيا والآخرة ، ثم أخبروا بأن دار الآخرة خير من الحياة الدنيا ، والجزاء فيها أتم من الجزاء فى الدنيا ، ودار الآخرة نعم الدار لمن اتقى ربه ، ويفصل ما أجمل عن هذه الدار ، فإذا هى جنان عدن للإقامة ، تجرى من تحتها الأنهار رخاء : ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ فلا حرمان ولا كد ، ولا حدود للرزق كما هى الحياة الدنيا ، وكذلك يجزى الله المتقين .

ثم يعود السياق خطوة بالمتقين كما عاد من قبلهم خطوة بالمستكبرين ، فإذا هم فى مشهد الاحتضار ، وهو مشهد هين لين كريم ، فهم طيبون مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء ، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة وهم على أعتاب الآخرة ، جزاء وفاقا على ما كانوا يعملون .

وفى ظل المشهد بشقيه ، مشهد الاحتضار ومشهد البعث ، يعقب السياق بسؤال عن المشركين من قريش : ماذا ينتظرون ؟ أينتظرون الملائكة فتتوفاهم ؟ أم ينتظرون أمر الله فيبعثهم ،

وهذا ما ينتظرهم عند الوفاة ، وماذا ينتظرهم يوم يبعثهم الله أوليس فى مصيرهم المكذبين قبلهم وقد شهدوه ممثلا فى ذلك المشهدين عبرة وغناء .

وعجيب أمر الناس ، فإنهم يرون ما حل بمن قبلهم ممن يسلكون طريقهم ، ثم يظلون سادرين فى الطريق غير متصورين أن ما أصاب غيرهم يمكن أن يصيبهم ، وغير مدركين أن سنة الله تمضى وفق ناموس مرسوم ، وأن المقدمات تعطى دائماً نتائجها ، وأن الأعمال تلقى دائماً جزاءها ، وأن سنة الله لن تحابيهم ولن تتوقف إزاءهم ، ولن تحيد عن طريقهم ، وبما تمادى فيه هؤلاء المشركون ظلموا أنفسهم وذلك بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاؤوا به ، فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك ؛ وما ظلمهم الله لأنه تعالى أعذر إليهم ، وأقام حججه عليهم بإرساله رسله وإنزال كتبه ، وأحاط بهم من العذاب الأليم ، ما كانوا به يسخرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله ، وما قسا الله عليهم فى عقوبة ، إنما قست عليهم سيئات أعمالهم ؛ لأنهم أصيبوا بها ـ أى نتائجها الطبيعية وجرائرها .

يقول صاحب **الظلال** : « ولهذا التعبير وأمثاله دلالة ، فإنهم لا يُعاقبون بشىء خارج عن ثمرة أعمالهم الذاتية ، وإنهم ليصابون بجرائر سلوكهم التلقائية ، وهم ينتكسون إلى أدنى من رتبة البشرية بما يعملون ، فيجازون بما هو أدنى من رتبة البشرية فى دركات المقام المهين ، والعذاب الأليم » .

فى قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ كلمة ﴿ طَيِّبِينَ ﴾ يقول **الإمام فخر الدين الرازى** : « كلمة طيبين كلمة مختصرة جامعة للمعانى الكثيرة ، وذلك لأنه يدخل فيه إتيانهم بكل ما أمروا به ، ويدخل فيه كونهم موصوفين بالأخلاق الطيبة ، مبرئين عن الأخلاق المذمومة » .

وفى قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ يقول **أيضا الإمام فخر الدين الرازى**: « هذه الشبهه الثانية لمنكرى النبوة ـ بعد قولهم إن هذا الذكر أساطير الأولين ـ فإنهم طلبوا من النبى ﷺ أن ينزل الله تعالى ملكاً من السماء يشهد فى ادعاء النبوة ، ويحتمل أن يقال : إن الكفار لا ينزجرون عن أقوالهم الباطلة إلا إذا جاءتهم الملائكة بالتهديد » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ ثبوت عذاب القبر ، ومجىء الملائكة عند الاحتضار ساعة خروج الروح لقبض الأرواح.

٢ ـ من أحسن عمله فى الدنيا أحسن الله إليه فى الدنيا والآخرة .

٣ ـ الدار الآخرة خير من الحياة الدنيا ، والجزاء فيها أتم من الجزاء فى الدنيا .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن
شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ
فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ
(٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ
وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ
حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٣٧)
وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ
وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨)
لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ
كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ
لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٤٠) وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟
لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟
يَعْلَمُونَ (٤١) ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)

٢٧١

معانى الكلمات :

اجتنبوا الطاغوت : اجتنبوا كل معبود باطل وكل داع إلى ضلالة .

حقت : ثبتت ووجبت .

جهد أيمانهم : مجتهدين فى الحلف بأوكد الأيمان وأقواها .

لنبوئنهم : لننزلنهم .

حسنة : داراً أو عطية حسنة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم كيف يعتذر المشركون يوم القيامة ، وكيف يرد الله ـ عز وجل ـ عليهم كذبهم .

٢ ـ أن نؤمن بأن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء .

٣ ـ أن نعلم ما حدث لرسول الله ﷺ ولأصحابه فى مكة من الظلم لإقامة دينه ، وما جازاهم به فى الدنيا ، وما ينتظرهم من ثواب عظيم فى الآخرة .

المحتوى التربوى :

يخبر الله ـ تعالى ـ عن اغترار المشركين بما هم فيه من الشرك واعتذارهم محتجين بالقدر ، وهم يحيلون شركهم وعبادتهم آلهة من دون الله هم وآباؤهم ، وأوهام الوثنية التى يزاولونها من تحريمهم لبعض الذبائح وبعض الأطعمة على أنفسهم بغير شريعة من الله ـ إنهم يحيلون هذا كله على إرادة الله ومشيئته ، فلو شاء الله ، فى زعمهم ـ ألا يفعلوا شيئا من هذا لمنعهم من فعله ، وهذا وهم وخطأ فى فهم معنى المشيئة الإلهية ، وتجريد للإنسان من أهم خصائصه التى وهبها له الله لاستخدامها فى الحياة .

obeikandl.com

قال صاحب الأساس : « إن من أدق مواضيع المعرفة معرفة شمول الإرادة الإلهية ، ومعرفة أن الإنسان مختار ، وأنه لا تنافى بين عموم الإرادة الإلهية واختيار الإنسان ، وأن صفة الإرادة لله غير أوامره وغير رضاه ، فالله يأمر ولا يرضى إلا عما يأمر به ، فهناك تلازم بين الرضا والأمر ، وليس هناك تلازم بين الرضا والإرادة، إن كل شيء بإرادة الله ،وهذا لا يتنافى مع اختيار الإنسان؛ لأن قدرة الله على وفق إرادته ، وإرادته على وفق علمه ، والعلم كاشف لا مجبر .

فالله ـ عز وجل ـ علم أزلا أن فلانا سيفعل ، وعلمه ليس مجبراً ، فأراد ذلك فأبرزه بقدرته ، فكونه أراده وأبرزه بقدرته لا يعنى أنه أجبر ؛ لأنه لو لم يرده لم يكن ، ولو لم يبرزه لم يوجد ، فهو وحده الخالق ، على أن ما ذكرناه من ترتيب الإرادة على العلم إنما هو لمجرد الإفهام ، وليس هناك ترتيب فى الأزل ، فالله علم أزلا وأراد أزلا » .

فمشيئته ـ تعالى ـ الشرعية منتفية،لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، وأما مشيئته الكونية ، وهى تمكينهم من ذلك قدرا ، فلا حجة لهم فيها ؛ لأنه ـ تعالى ـ خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة ، وهو لا يرضى لعباده الكفر ، وله فى ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة .

ولم يجعل الله ـ عز وجل ـ الرسل جبارين يلوون أعناق الناس إلى الإيمان ، ولكن مبلغين ليس عليهم إلا البلاغ ، يأمرون بعبادة الله وحده واجتناب كل ما عداه من وثنية وهوى ، وشهوة وسلطان ، وفريق استجاب ، وفريق شرد فى طريق الضلال ، ويأتى التعقيب بالخطاب إلى الرسول ﷺ يقرر سنة الله فى الهدى والضلال ، فليس الهدى أو الضلال بحرص الرسول على هدى القوم أو عدم حرصه ، فوظيفته البلاغ ، أما الهدى أو الضلال فيمضى وفق سنة الله ، وهذه السنة لا تتخلف ولا تتغير عواقبها ؛ فمن أضله الله لأنه استحق الضلال وفق سنة الله ، فإن الله لا يهديه ، لأن لله سننا تعطى نتائجها ، وهكذا شاء والله فعال لما يشاء ، وليس لهم من ناصر ينصرهم من دون الله .

ثم يخبر ـ تعالى ـ عن المشركين أنهم حلفوا فأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، فهم يقرون بوجود الله ولكنهم ينفون عنه بعث الموتى من القبور ، يرون هذا البعث أمراً عسيراً بعد الموت والبلى وتفرق الأشلاء والذرات ، وغفلوا عن معجزة الحياة الأولى ، وغفلوا عن طبيعة القدرة الإلهية ، وأنها لا تقاس إلى تصورات البشر وطاقتهم ، وأن إيجاد شيء لا يكلف تلك القدرة شيئا ، فيكفى أن تتوجه الإرادة إلى كون الشيء ليكون .

وغفلوا كذلك عن حكمة الله فى البعث ، وهذه الدنيا لا يبلغ أمر فيها تمامه ، فالناس يختلفون حول الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والخير والشر ، وقد لا يفصل بينهم فيما يختلفون فيه فى

هذه الأرض ؛ لأن إرادة الله شاءت أن يمتد ببعضهم الأجل ، وألا يحل بهم عذابه الفاصل فى هذه الديار ، حتى يتم الجزاء فى الآخرة ويبلغ كل أمر تمامه هناك ، والسياق يرد على تلك المقولة الكافرة ، ويكشف ما يحيط بها فى نفوس القوم من شبهات ، فيبدأ بالتقرير بأن هذا وعد الله ، ومتى وعد الله فقد كان ما وعد به لا يتخلف بحال من الأحوال ، وأكثر الناس لا يعلمون حقيقة وعد الله .

ثم ذكر تعالى حكمته فى المعاد وقيام الأجساد يوم التناد ، فقال : إنه ليبين للناس ما كانوا يختلفون فيه من كل شىء ، وليعلم الكافرون كذبهم فيما ادعوا أنهم على الهدى ، وفيما زعموا من كذب الرسل ، ومن نفى الآخرة ، وفيما كانوا فيه من اعتقاد ومن فساد ، الأمر بعد ذلك هين فسبحانه لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة فيكون كما يشاء وهنا يأمر الله ـ عز وجل ـ بما يريده دفعة واحدة فإذا هو كائن ، فهو تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به ، فإنه ـ تعالى ـ لا يمانع ولا يخالف ؛ لأنه الواحد القهار العظيم ، الذى قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شىء ، فلا إله إلا هو ولا رب سواه .

ويعرض السياق فى الجانب المقابل للمنكرين الجاحدين ، لمحة عن المؤمنين الصادقين ، الذين يحملهم يقينهم فى الله والآخرة على هجر الديار والأموال فى الله ، وفى سبيل الله ، وهؤلاء الذين هاجروا من ديارهم وأموالهم ، وتعروا عما يملكون وعما يحبون ، وضحوا بدارهم وقرب عشيرتهم والحبيب من ذكرياتهم ، هؤلاء يرجون فى الآخرة عوضاً عن كل ما خلفوا ، وكل ما تركوا ، وقد عانوا الظلم وفارقوه، فإذا كانوا قد خسروا الديار فالله يعوضهم خيراً منها فى الدنيا، فإن من ترك شيئا لله عوضه الله بما هو خير له منه ، وكذلك وقع ، فإنهم مكن الله لهم فى البلاد وحكمهم على رقاب العباد ، فصاروا أمراء حكاما ، وكل منهم للمتقين إماما .

وأخبر ـ تعالى ـ أن ثوابه للمهاجرين فى الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم فى الدنيا ، لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخره الله لمن وصفهم بأنهم صبروا على أذى من آذاهم من قومهم ، متوكلين على الله الذين أحسن لهم العاقبة فى الدنيا والآخرة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ البعث حق وضرورة ؛ لينال كل إنسان جزاء ما قدم من عمل فى هذه الحياة .

٢ ـ كل شىء يوجد وينفذ بأمر الله وإرادته فلا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به .

٣ ـ عظم جزاء المهاجرين فى سبيل الله لإعلان دينه .

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖۖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾

٢٧٢

معانى الكلمات :

بالبينات : أرسلهم الله بالمعجزات .

والزبر : وكتب الشرائع والتكاليف .

يخسف : يغيب .

تقلبهم : أسفارهم ومتاجرهم ومعاشهم .

بمعجزين : بفائتين من عذاب الله بالهرب .

يتفيأ ظلاله : يميل ظله وينتقل من جانب إلى آخر .

واصبا : دائماً خالصاً أو واجبا .

تجأرون : تلحون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن رسل الله بشر وكان معهم من الكتب والمعجزات الواضحة الملزمة الحجة .

٢ ـ أن نستشعر دلائل الإيمان فى الكائنات التى لها ظلال متقلبة عن اليمين والشمال وأنها صاغرة أمام رب العالمين ذليلة له .

٣ ـ أن نعلم أن الله تعالى لا يرضى لعباده الكفر ، فإليه وحده الملجأ ، ومنه النجاة .

المحتوى التربوى :

لما بعث الله محمداً ﷺ رسوله ، أنكرت العرب ذلك ، أو من أنكرت منهم ، وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً ، والله عز وجل يقول : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالاً ﴾ لم نرسل ملائكة ، ولم نرسل خلقا آخر ، رجالا مختارين أوحينا إليهم ، كما أوحينا إليك ، ونكل إليهم التبليغ كما وكلنا إليك ، فاسألوا أهل الكتاب الذين جاءتهم الرسل من قبل ، أكانوا رجالا أم كانوا ملائكة أم خلقًا آخر ، اسألوهم إن كنتم لا تعلمون ذلك ، أرسلناهم بالبينات وبالكتب المتفرقة ، وأنزلنا إليك القرآن لتوضح للناس ما نزل إليهم من ربهم سواء منهم السابقون أهل الكتاب الذين اختلفوا فى كتابهم ، فجاء القرآن ليفصل فى هذا الخلاف ، وليبين لهم وجه الحق فيه ، أو المعاصرون الذين جاءهم القرآن والرسول ﷺ يبينه لهم ويشرحه بفعله وقوله ، لعلهم

يتفكرون فى آيات الله وآيات القرآن ، فإنه يدعو دائماً إلى التفكر والتدبر ، وإلى يقظة الفكر والشعور .

ويختم هذا الدرس الذى بدأه بالإشارة إلى الذين يستكبرون ويمكرون ، ينتهى بلمسة وجدانية بعد لمسة : أولاهما للتخويف من مكر الله الذى لا يأمنه أحد فى ساعة من ليل أو نهار ، والثانية لمشاركة هذا الوجود فى عبادة الله وتسبيحه ، فليس إلا الإنسان هو الذى يستكبر ويمكر ، وكل ما حوله يحمد ويسبح .

يقول صاحب الظلال : « وأعجب العجب فى البشر أن يد الله تعمل من حولهم ، وتأخذ بعضهم أخذ عزيز مقتدر ، فلا يغنى عنهم مكرهم وتدبيرهم ، ولا تدفع عنهم قوتهم وعلمهم وماهم ، وبعد ذلك يظل الذين يمكرون يمكرون ، ويظل الناجون آمنين لا يتوقعون أن يؤخذوا كما أخذ من قبلهم ومن حولهم ، ولا يخشون أن تمتد إليهم يد الله فى صحوهم أو فى منامهم ، فى غفلتهم أو فى استيقاظهم والقرآن الكريم يلمس وجدانهم من هذا الجانب ليثير حساسيتهم للخطر المتوقع، الذى لا يغفل عنه إلا الخاسرون » .

ويخبر سبحانه عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها ، ويمكرون بالناس فى دعائهم إياهم وحملهم عليها ، مع قدرته على أن يخسف الله بهم الأرض كما فعل بمن تقدمهم أو يأتيهم العذاب بغتة من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم ، أو يأخذهم وهم يتقلبون فى البلاد ، من بلد إلى بلد للتجارة والسياحة ، فماهم بمعجزين لله ، ولا يبعد عليه مكانهم فى حل أو ترحال أو يأخذهم وهم خائفون ، فإن يقظتهم وتوقعهم لا يرد يد الله عنهم ، فهو قادر على أخذهم وهم متأهبون قدرته على أخذهم وهم لا يشعرون ؟ ولكن الله رءوف رحيم .

أفأمن الذين مكروا السيئات أن يأخذهم الله ؟ فهم لاجون فى مكرهم سادرون فى غيهم لا يثوبون ولا يتقون ، ذلك والكون من حولهم بنواميسه وظواهره يوحى بالإيمان ويوحى بالخشوع والخضوع لله، والدينونة له سبحانه ،وكل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال بكرة وعشيا ، فإنه ساجد بظله لله تعالى وهو صاغر خاضع خاشع طائع .

ويضم إلى مشهد الظلال ما فى السموات وما فى الأرض من دابة ، ويضيف إلى هذا الحشد الكونى الملائكة ، فإذا مشهد عجيب من الأشياء والظلال والدواب ، ومعهم الملائكة فى مقام خشوع وخضوع وعبادة وسجود ، لا يستكبرون عن عبادة الله ولا يخالفون عن أمره ، والمنكرون المستكبرون من بنى الإنسان وحدهم شواذ فى هذا المقام العجيب ، ويشير إلى المنكرين المستكبرين ليفردهم فى النهاية بالإنكار والاستكبار فى مشهد الوجود .

يقول صاحب الأساس : « يفهم من ظاهر الآية أن فى السموات دواب ، كما فى الأرض دواب ، وفى عصرنا يزداد الكلام على احتمالات وجود حياة فى أجرام كجرم أرضنا ، ونحن الآن

obeikandi.com

لانستطيع أن نجزم بشيء ، ولكن على فرض اكتشاف جرم فيه حياة ، فإن الآية يمكن أن تحمل عليهم،أما إذا لم يتبين مثل ذلك فالآية تحمل على أن المذكور فيها يراد به دواب الجنة والله أعلم » .

ويقرر سبحانه أنه لا إله إلا هو ، وأنه لا ينبغى العبادة إلا له وحده لا شريك له ؛ فإنه مالك كل شيء وخالقه وربه ، وله كل ما فى السموات والأرض وله الدين دائما ، واصلا منذ ما وجد الدين فلا دين إلا دينه ، ولا يجوز أن يكون فى قلب الإنسان رهبة إلا من الله ، وإذا وجدت بحكم الجبلة فعليه أن يدافعها ، وإذا كان الملك له سبحانه ، وعلى الكل طاعته ، فكيف يتقى غيره والخوف ليس إلا منه ؟!

ثم أخبر تعالى أن ما بالعباد من رزق ونعمة ونصر فمن فضله عليهم ، وإحسانه لهم قال : أى شيء اتصل بكم من نعمة : عافية ، وغنى ، وخصب ، فهو من الله فكيف تشركون معه غيره وإنكم عند الضرورات تلجؤون إليه ، وتسألونه وتلحون فى الرغبة مستغيثين به عند الضر لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو ، وإذا مسكم الضر من مرض، وفقر ، وجدب ، وخذلان ، ومصائب ، وخوف وغير ذلك ، فإلى الله ترفعون أصواتكم إليه بالدعاء والاستغاثة ، فلا تتضرعون إلا إليه لعلمكم الفطرى أنه هو الوحيد القادر .

وإذا كشف الضر فإذا البعض يرجع إلى كفره ، فهم يوحدون فى الشدائد ، ويشركون فى رخاء أقام الحجة على التوحيد أولاً بالوحى ، ثم بخضوع كل شيء له إذ ما من شيء يشذ عن النظام الذى خلقه ، ثم بكون النعم كلها منه ، فهو الذى أوجدها وسخرها وأنعم بها ، ثم بالالتجاء إليه وحده عند الشدة لما ركبت عليه الفطرة البشرية .

يقول صاحب الظلال : « وهكذا يتفرد سبحانه وتعالى بالألوهية والملك والدين والنعمة والتوجه ، وتشهد فطرة البشر بهذا كله حين يصهرها الضر وينفض عنها أو شاب الشرك ، مع هذا فإن فريقا من البشر يشركون بالله بعد توحيده طالما ينجيهم من الضر المحيق ... نموذج متكرر فى البشرية ، ففى الضيق تتوجه القلوب إلى الله ، لأنها تشعر بالفطرة ألا عاصم لها سواه ، وفى الفرج تتلهى بالنعمة والمتاع ... » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام كانوا بشرًا ، كما كان محمد ﷺ كذلك ، حتى يتمكنوا من تبليغ رسالة ربهم إلى الناس .

٢ ـ الرسول ﷺ أعلم الناس وأكثرهم اتباعا لما أنزل عليه وهو سيد ولد آدم .

٣ ـ السنة النبوية الشريفة تفصيل لما أجمله القرآن ، وتوضيح لما فيه ، ونحن مطالبون بالعمل بالقرآن والسنة جميعاً .

لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ
لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ
تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ
﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ
﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ
أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ
﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن
يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ
سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ
وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ لَا جَرَمَ أَنَّ
لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن
قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ
ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾
٢٧٣

معانى الكلمات :

تفترون : تكذبون على الله .

كظيم : ممتلئ غما وغيظا فى أعماق نفسه .

يتوارى : يستخفى .

يدسه : يخفيه فيدفنه حيا .

هون : هوان وذل .

مثل السوء : صفته القبيحة من الجهل والكفر .

مفرطون : معجل بهم إلى النار .

زين : سوَّل وسهل وأغرى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على ما افتراه كفار الجزيرة العربية على الله تعالى قبل الإسلام .

٢ ـ أن نستشعر رحمة الله تعالى ولطفه بعباده فى أنه لم يؤاخذهم بأعمالهم ، ولكنه أجلهم إلى وقت معين تقتضيه حكمته .

٣ ـ أن نتذكر نعمة الله تعالى فى إرسال الرسل .

المحتوى التربوى :

يذكر السياق أن القلوب فى الفرج تتلهى بالنعمة والمتاع ، فتضعف صلتها بالله ، وتزيغ عنه ألوانا من الزيغ تبدو فى الشرك به ، وتبدو كذلك فى صور شتى من تأليه قيم وأوضاع ، ولو لم تدع باسم الإله ، ولقد يشتد انحراف الفطرة وفسادها ، فإذا بعضهم فى ساعة العسرة لا يلجأ إلى الله ، ولكن يلجأ إلى بعض مخاليقه يدعوها للنصرة والإنقاذ والنجاة ، بحجة أنها ذات جاه أو منزلة عند الله ، أو بغير هذه الحجة فى بعض الأحيان ، كالذين يدعون الأولياء لإنقاذهم من

مرض أو شدة أو كرب ، فهؤلاء أشد انحرافا من مشركى الجاهلية الذين يرسم لهم القرآن ذلك النموذج الذى رأيناه .

وإذا هم يحرمون على أنفسهم بعض الأنعام لا يركبونها أو لا يذوقون لحومها ، أو يبيحونها للذكور دون الإناث باسم الآلهة المدعاة ؛ التى لا يعلمون عنها شيئا ، إنما هى أوهام موروثة من الجاهلية الأولى ، والله هو الذى رزقهم هذه النعمة التى يجعلون لما لا يعلمون نصيبا منها ، فليست هى من رزق الآلهة المدعاة لهم ليردوها عليها ، إنما هى من رزق الله ، الذى يدعوهم إلى توحيده فيشركون سواه .

يقول صاحب الظلال : « وهكذا تبدو المفارقة فى تصورهم وفى تصرفهم على السواء .. الرزق كله من الله ، والله يأمر ألا يعبد سواه فهم يخالفون عن أمره فيتخذون الآلهة ، وهم يأخذون من رزقه فيجعلونه لما نهاهم عنه،وبهذا تتبدى المفارقة واضحة جاهرة عجيبة مستنكرة ، وما يزال أناس بعد أن جاءت عقيدة التوحيد وتقررت ، يجعلون نصيبا من رزق الله لهم موقوفا على ما يشبه آلهة الجاهلية » . وهذا افتراء يحطم العقيدة من أساسها ؛ لأنه يحطم عقيدة التوحيد ، ومن ثم أقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذى افتروه وانتفكوه ، وليقابلنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء فى نار جهنم .

ويخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، وجعلوها بنات الله ، وعبدوها معه ، فأخطؤوا خطأ كبيراً فى كل مقام من هذه المقامات الثلاث ، فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً ،ولا ولد له ، ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات ، وهم لا يرضونها لأنفسهم ، فالبنات لله أما هم فيجعلون لأنفسهم ما يشتهون من الذكور ، وانحرافهم عن العقيدة الصحيحة سول لهم وأد البنات ، والإبقاء عليهن فى الذل والهوان من المعاملة السيئة والنظرة الوضيعة ، ذلك أنهم كانوا يخشون العار والفقر مع ولادة البنات ؛ إذ البنات لا يقاتلن ولا يكسبن وقد يقعن فى السبى عند الغار فيجلبن العار ، أو يعشن كلًّا على أهليهن فيجلبن الفقر ، والعقيدة الصحيحة عصمة من هذا كله ، إذ الرزق بيد الله يرزق الجميع ، ولا يصيب أحداً إلا ما كتب له ، ثم إن الإنسان بجنسيه كريم على الله .

ويرسم السياق صورة منكرة لعادات الجاهلية ، فإذا بشر أحدهم بالأنثى ترى وجهه مسوداً كئيبا من الهم ، ساكتا من شدة ما هو فيه من الحزن ، يكره أن يراه الناس فيستخفى منهم من أجل سوء المبشَّر به ، ومن أجل تعييرهم ، ويحدث نفسه وينظر أيمسك ما بشر به على هون وذل ، أم يئده بأن يدفنها حية كما كانوا يصنعون فى الجاهلية ؟ أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله ؟ ! فبئس ما قالوا وبئس ما قسموا ، وبئس ما نسبوه إليه .

وهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة لهم وحدهم صفة النقص أى صفة السوء ، وهى هنا الحاجة إلى الأولاد الذكور وكراهة الإناث ووأدهن خشية الإملاق ، ولله وحده الكمال المطلق من كل وجه ، ومن ذلك الغنى عن العالمين ، والنزاهة عن صفات المخلوقين ، وهو الغالب فى تنفيذ ما أراد ، الحكيم فى إمهال العباد ، ولو يؤاخذهم بما كسبوا لأهلك جميع دواب الأرض تبعاً لإهلاك بنى آدم،ولكن الرب جل جلاله يحلم ويستر ويُنْظِر إلى أجل مسمى عنده تقتضيه الحكمة، أو إلى يوم القيامة ، وإذًا فهو لا يعاجلهم بالعقوبة إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً ، وإذا جاء أجلهم الذى سماه لهم ، حقت عليهم كلمة الله سبحانه فى ذلك الوقت من دون تقدم عليه ولا تأخر عنه ، والساعة : المدة القليلة .

ثم ذكر نوعا آخر من جهلهم وحمقهم ؛ فهم ينسبون إليه سبحانه ما يكرهون نسبته إلى أنفسهم من البنات ، ويكرهون أن يكون لأحدهم شريك فى ماله ويجعلون لله شريكا فى ملكه ، ويكرهون أن يستخف أحد برسلهم وهم يستخفون برسل الله ، ويستهزئون بهم ويكرهون أراذل المال ويجعلونها له ، ويجعلون لأصنامهم أكرمها ، فقد أقاموا الله بالمقام الأدنى من أنفسهم وأصنامهم،ويقولون الكذب وهو أن لهم الجنة عند الله،والحق أن لهم النار فهى التى يستحقونها ، وهؤلاء مقدمون عند الله ، ولكن إلى النار معجلون إليها .

ويذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلا ، فكذبت الرسل ، فلك يا محمد فى إخوانك من المرسلين أسوة ، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل ، فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه ، وهم تحت العقوبة والنكال والشيطان وليهم ، ولا يملك لهم خلاصا ، ولا صريخ لهم ولهم عذاب أليم .

فوظيفة الكتاب الأخير والرسالة الأخيرة هى الفصل فيما شجر من خلاف بين أصحاب الكتب السابقة وطوائفهم ، إذ الأصل هو التوحيد ، وكل ما طرأ على التوحيد من شبهات وكل ما شابه من شرك فى صورة من الصور ومن تشبيه وتمثيل ، كله باطل جاء القرآن الكريم ليجلوه وينفيه ، وليكون هدى ورحمة لمن استعدت قلوبهم للإيمان وتفتحت لتلقيه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً .

١ ـ متاع الدنيا قليل ، وعمر الإنسان فيها قصير ، والعاقل من اتخذها وسيلة للنعيم الدائم فى الآخرة .

٢ ـ الله تعالى منزه عن الشريك والولد ، تقدس وتعالى عن مشابهة المخلوقات .

٣ ـ الله رحيم بعباده ، ولولا ذلك لعامل الظالمين بالعقوبة ، ولما ترك دابة تدب على ظهر الأرض .

وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا
فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾
وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا
حَسَنًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ
أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى
مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا
شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۗ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ
ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ
فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى
رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ
ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا
وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ
ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾
٢٧٤

معانى الكلمات :

لعبرة : لعظة ودلالة على قدرة الله .

فرث : مافى البطن والأمعاء من زبل أو ثقل .

سائغاً : لذيذاً حلوا .

سكراً : خمراً .

أوحى ربك إلى النحل : ألهمها وأرشدها أو سخرها .

بيوتا : أوكاراً تبنيها لتضع فيها عسلها .

أرذل العمر : أخسه .

حفدة : خدما وأعوانا ، أو أولاد أولاد .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتأمل بعض مظاهر الكون ونتفكر فيه .

٢ ـ أن نتعرف على عالم النحل الذى يخرج العسل الذى فيه شفاء للناس .

٣ ـ أن نعلم دلائل قدرة الله ونعمه العظيمة تذكرنا الآيات بنعمة الزواج والإنجاب .

المحتوى التربوى :

يأخذ السياق فى استعراض آيات الألوهية الواحدة فيما خلق الله فى الكون ، وفيما أودع الإنسان من صفات واستعدادات ، وفيما وهبه من نعم وآلاء ، مما لا يقدر عليه أحد إلا الله ، وقد ذكر فى الآية السابقة إنزال الكتاب ـ وهو خير ما أنزل الله للناس وفيه حياة الروح ـ فهو يتبعه بإنزال الماء فى السماء ، وفيه حياة الأجسام ، والماء حياة كل حى ، والنص يجعله حياة للأرض كلها على وجه الشمول لكل ما عليها ومن عليها ، والذى يحول الموت إلى حياة هو الذى يستحق أن يكون إلها ، وفى ذلك لآية لقوم يسمعون ، فيتدبرون ما يسمعون ، فهذه القضية ، قضية آيات الألوهية ودلائلها من الحياة بعد الموت ذكرها القرآن كثيرا ووجه إليها الأنظار كثيراً ، ففيها آية لمن يسمع ويعقل ويتدبر ما يقال .

وعبرة أخرى فى الأنعام تشير إلى عجيب صنع الخالق ، وتدل على الألوهية بهذا الصنع العجيب ، فهذا اللبن الذى تدره ضروع الأنعام مم هو ؟ إنه مستخلص من بين فرث ودم ، والفرث ما يتبقى فى الكرش بعد الهضم ، وامتصاص الأمعاء للعصارة التى تتحول إلى دم ، هذا الدم الذى يذهب إلى كل خلية فى الجسم فإذا صار إلى غدد اللبن فى الضرع تحول إلى لبن ببديع صنع الله العجيب ، الذى لا يدرى أحد كيف يكون .

يقول صاحب الأساس : « إن آلية تشكل الحليب كما يتحدث عنه العلم الحديث على الشكل التالى : بعد أن يتمثل الطعام ، ويصل إلى الأمعاء ، تمتص الزغيبات المعوية ما فيه من غذاء ، مبقية الفضلات ـ وهى الفرث ـ فى الأمعاء ، فيلقى الغذاء فى الدم ، وهذه أول تصفية ، ثم يمر الدم وهو يحمل الغذاء على الغدد اللبنية ، فتفرز هذه الغدد الحليب من الدم ليذهب إلى الثدى ، وتلك التصفية الثانية ، وهكذا من بين فرث ودم يخرج الحليب ، هذا الذى ذكره القرآن قبل أن يصل العلم إلى مثل هذه الدقة فى تحديد آلية الوصول إلى الحليب يدل بما لا يقبل جدلا على أن منزل هذا القرآن هو العليم بكل شىء » .

ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شرابا للناس سائغا ، ثنّى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة ، من ثمرات النخيل والأعناب ، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه ، والنص يلمح إلى أن الرزق الحسن غير الخمر ، وأن الخمر ليست رزقا حسنا ، وفى هذا توطئة لما جاء بعد من تحريمها ، وإنما كان يصف الواقع فى ذلك الوقت من اتخاذهم الخمر من ثمرات النخيل والأعناب ، وليس فيه نص بحلّها ، بل فيه توطئة لتحريمها ، وفى هذا آية لقوم يعقلون ، فيدركون أن من يصنع هذا الرزق هو الذى يستحق العبودية له وهو الله .

ثم ذكر الله تعالى بآية أخرى ونعمة أخرى ، فقد ألهم وهدى وأرشد إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتا تأوى إليها ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم هى محكمة فى غاية الإتقان فى تسديسها ورصها ، بحيث لا يكون بينها خلل ، ثم أذن لها تعالى إذنا قدريا تسخيريا أن تأكل من كل الثمرات ، وأن تسلك الطرق التى جعلها الله تعالى لها مذللة سهلة عليها حيث شاءت فى هذا الجو العظيم والبرارى الشاسعة ، والأودية والجبال الشاهقة ، ثم تعود كل واحدة منها إلى موضعها وبيتها ، لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة ، بل إلى بيتها وما لها من فراخ وعسل ، فتبنى الشمع من أجنحتها ، وتقىء العسل من فيها ، وتبيض الفراخ من دبرها ، ثم تصبح إلى مراعيها .

ويخرج من بطونها عسل مختلف ألوانه ، ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة ، على اختلاف مراعيها ومأكلها منها، وفى هذا العسل شفاء للناس من أدواء تعرض لهم ، وقد ألفت المؤلفات الكثيرة ، شرقية وغربية فى العسل كدواء ، وفى مجموع ما مّر من هداية النحل إلى الشفاء بما خرج منه لآية ، ولكن لقوم يتفكرون أما الذى لا يتفكر فإنه قد أعمته الألفة عن رؤية الآية فلم يعد يشعر بما تدل عليه .

obeikandi.com

ثم أخبر تعالى عن تصرفه فى عباده وأنه هو الذى أنشأهم من العدم ، ثم بعد ذلك يتوفاهم ، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم والضعف فى الخلقة لينسى ما يعلم ، أولئلا يعلم زيادة علم على علمه ، فالله عليم بحكم التحويل إلى الأرذل من الأكمل ، أو إلى الإفناء من الإحياء ، قدير على تبديل ما يشاء كما يشاء من الأشياء ، بعد أن ذكرهم هنا بكمال قدرته وتصرفه وعجزهم وقهرهم تحت سلطانه ، ليدركوا افتقارهم فى كل حال إليه ، فهم مفتقرون إلى نعمه ، مفتقرون إليه .

ويبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء ، وهم يعترفون أنها عبيد له ، فقال تعالى منكراً عليهم : إنكم لا ترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم ، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيده له فى الإلهية والتعظيم ، وما بالكم تردون جزءاً من مال الله الذى رزقكم إياه على آلهتكم المدعاة ؟ أفتجاوزن النعمة بالشرك ، بدل الشكر للمنعم المتفضل الوهاب تجعلون له شركاء والله أحق أن ينزه عن هذا ؟ !

ويذكر تعالى نعمه على عبيده ، بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر لما حصل ائتلاف ومودة ورحمة ، ولكن من رحمته خلق من بنى آدم ذكوراً وإناثا، وجعل الإناث أزواجا للذكور، ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة ، وهم أولاد البنين ، والإنسان الفانى يحس الامتداد فى الأبناء والحفدة ، ولمس هذا الجانب فى النفس يثير أشد الحساسية .

ويضم إلى هبة الأبناء والأحفاد هبة الطيبات من الرزق للمشاكلة بين الرزقين ، ليعقب عليها بسؤال استنكارى : ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ فيشركون به ويخالفون عن أمره ، وهذه النعم كلها من عطائه ، وهى آيات على ألوهيته ، وهى واقعة فى حياتهم ، تُلابسهم فى كل آن : ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وما عدا الله باطل ، وهذه الآلهة المدعاة ، والأوهام المدعاة كلها باطل لا وجود له ، ولا حق فيه ﴿ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ وهى حق يلمسونه ويحسونه ويتمتعون به ثم يجحدونه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ جعل الله القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها ، يترعرع فيها الإيمان ، ويثمر الأعمال الصالحة .

٢ ـ من عجائب قدرة الله ـ تعالى ـ إخراج اللبن الخالص من بين فرث ودم فى باطن الحيوان ، وقد جعله الله غذاء طيبا للإنسان ، وكذلك كل مستخرجاته ، فما أكثر نعم الله علينا ، وما أعظم دلائل قدرته .

٣ ـ فى النحل كثير من عجائب قدرة الله ـ تعالى ـ وهى تتخذ من الجبال بيوتا تأوى إليها ومن الشجر .

وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا
مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا
فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ
بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ
أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ
مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن
يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيۡبُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ
أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ
أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ
لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ
﴿٧٨﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ
مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٧٩﴾

الحزب ٢٨

معانى الكلمات :

أبكم : أخرس لا ينطق .

كل : عبء يعوله غيره .

كلمح البصر : مثل النظر بسرعة خاطفة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على ضلال المشركين فى عبادتهم لغير الله .

٢ ـ أن نؤمن بكمال علمه تعالى وقدرته على الأشياء ، واختصاصه بعلم الغيب وقرب قيام الساعة .

٣ ـ أن نعلم قدرة الله المطلقة فى خلق الإنسان وإعطائه وسائل العلم من نعمة السمع والبصر والعقل .

المحتوى التربوى :

يقول صاحب الظلال : « إنه لعجيب أن تنحرف الفطرة إلى هذا الحد ، فيتجه الناس بالعبادة إلى ما لا يملك لهم رزقا ، وما هو بقادر فى يوم من الأيام ، ولا فى حال من الأحوال ، ويدعون الله الخالق الرازق ، وآلاؤه بين أيديهم لا يملكون إنكارها ، ثم يجعلون لله الأشباه والأمثال ، وإنه ليس لله مثال حتى تضربوا له الأمثال » .

ثم يضرب لهم مثلين للسيد المالك الرازق ، وللمملوك العاجز الذى لا يملك لهم ولا يكسب ، لتقريب الحقيقة الكبرى التى غفلوا عنها ، حقيقة أن ليس لله مثال ، وما يجوز أن يسووا فى العبادة بين الله وأحد من خلقه وكلهم له عبيد .

ويأتى مثل يضربه الله لهم من واقعهم ، فقد كان لهم عبيد مملوكون ، لا يملكون شيئا ولا يقدرون على شىء ، وهم لا يسوون بين العبد المملوك العاجز والسيد المالك المتصرف ، فكيف يسوون بين سيد العباد ومالكهم وبين أحد أو شىء مما خلق ، وكل مخلوقاته له عبيد ؟

والمثل الثانى يصور الرجل الأبكم الضعيف البليد الذى لا يدرى شيئا ولا يعود بخير ، والرجل القوى المتكلم الآمر بالعدل ، العامل المستقيم على طريق الخير ، ولا يسوى عاقل بين هذا وذاك ، فكيف تمكن التسوية بين صنم أو حجر ، وبين الله سبحانه وهو القادر العليم الآمر بالمعروف ، الهادى إلى الصراط المستقيم ؟

ولما كان هذان المثلان قد ذكرا من باب تقريب المعانى إلى الأذهان ، وقد يترتب عليه فى الأذهان الكليلة تصور لا يليق بالعظمة ، أتبع الله بآية تتحدث عن عظمة الله بما يخلع القلوب ، فيخبر تعالى عن كماله وقدرته على الأشياء ، فى علمه غيب السموات والأرض ، واختصاصه بذلك فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء .

يقول صاحب الظلال : « وقضية البعث إحدى قضايا العقيدة التى لقيت جدلا شديداً فى كل عصر ، ومع كل رسول ، وهى غيب من غيب الله الذى يختص بعلمه .. وإن البشر ليقفون أمام ستار الغيب عاجزين قاصرين ، مهما يبلغ علمهم الأرضى ، ومهما تتفتح لهم كنوز الأرض وقواها المذخورة ، وإن أعلم العلماء من بنى البشر ليقف مكانه لا يدرى ماذا سيكون اللحظة التالية فى ذات نفسه ، أيرتد نفسه الذى خرج أم يذهب فلا يعود ، وتذهب الآمال بالإنسان كل مذهب ، وقدره كامن خلف ستار الغيب لا يدرى متى يفجؤه ، وقد يفجؤه اللحظة ، وإنه لمن رحمة الله بالناس أن يجهلوا ما وراء اللحظة الحاضرة ليؤملوا ويعملوا وينتجوا وينشئوا ، ويخلفوا وراءهم ما بدؤوه يتمه الخلف حتى يأتيهم ما خبئ لهم خلف الستار الرهيب.

والساعة من هذا الغيب المستور، ولو علم الناس موعدها لتوقفت عجلة الحياة ، أو اختلت ، ولما سارت الحياة وفق الخط الذى رسمته لها القدرة ، والناس يعدون السنين والأيام والشهور والساعات واللحظات لليوم الموعود » .

وسبحانه إذا أراد شيئا فإنما يقول له : كن فيكون ما يريد كطرف العين ، وأمر الساعة فى قرب كونها ، وسرعة قيامها ، مع أنها تغيير لنظام الكون كله إلا كرجع طرف أو الأمر أقرب من ذلك ، والله يقدر على أن يقيم الساعة ويبعث الخلق ، وهذا بعض مقدوراته .

ويقرب القرآن الأمر بعرض مثل صغير من حياة البشر ، تعجز عنه قواهم ويعجز عن تصورهم وهو يقع فى كل لحظة من ليل أو نهار ، فيذكر تعالى منته على عباده ، فى إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا، ثم بعد هذا يرزقهم تعالى السمع الذى به يدركون الأصوات، والأبصار اللاتى بها يحسون المرئيات،والأفئدة ـ وهى العقول التى مركزها القلب على الصحيح، وقيل : الدماغ والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها ، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلا قليلا ، كلما كبر زيد فى سماعه وبصره وقوى عقله حتى يبلغ أشده .

وإنما جعل تعالى هذه فى الإنسان ، ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى ، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه ، وكما جاء فى الحديث الصحيح : « إن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل ، فلا يسمع إلا الله ، ولا يبصر إلا لله وما شرعه الله له ، ولا يبطش ولا يمشى إلا فى طاعة الله ـ عز وجل ـ مستعينا بالله فى ذلك كله ، والله ـ جل جلاله ـ ركّب هذه الأشياء لإزالة الجهل الذى ولدتم عليه ، واجتلاب العلم الذى يوصل إلى شكر المنعم ، وعبادته والقيام بحقوقه ، فماذا فعل الناس فيها ؟ استعملها الكثيرون فأفادتهم ولكن لم يحققوا بها ما خلقت له ، وهو الوصول إلى الشكر ، والقليل هم الذين شكروا .

ثم لفت نظرهم إلى آيات من آيات الله إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض ، فى جو السماء ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى ، الذى جعل فيها قوى تفعل ذلك ، وسخر الهواء يحملها ويسر الطير لذلك ، والمؤمن هو الذى يرى آيات الله فى هذه الظاهرة .

يقول صاحب الظلال : « فالقلب المؤمن هو القلب الشاعر ببدائع الخلق والتكوين ، المدرك لما فيها من روعة باهرة تهز المشاعر ، وتستجيش الضمائر ، وهو يعبر عن إحساسه بروعة الخلق ، بالإيمان والعبادة والتسبيح ، والموهوبون من المؤمنين هبة التعبير ، قادرون على إبداع ألوان من رائع القول فى بدائع الخلق والتكوين ، لا يبلغ إليها شاعر لم تمس قلبه شرارة الإيمان المشرق الوضىء » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ نعم الله علينا كثيرة وفضله علينا عظيم ، ومن تلك النعم نعمة السمع البصر والعقل .

٢ ـ قيام الساعة قريب ، وعلى المرء حسن الاستعداد لها .

٣ ـ إذا أخلص العبد الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل ، فلا يسمع إلا لله ، ولا يبصر إلا لله ، أى ما شرعه الله له ، ولا يبطش ولا يمشى إلا فى طاعة الله ومستعيناً بالله فى ذلك كله ، شاكراً له فضله ونعمه .

obeikandl.com

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ
الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ
وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ
﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ
مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ
الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا
وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ
شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ
﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ
يُنْظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ
قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ ۖ
فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا
إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾
٢٧٦

معانى الكلمات :

تستخفونه : تجدونها خفيفة الحمل .

ظعنكم : ترحالكم .

أثاثا : متاعا لبيوتكم كالفرش .

ظلالا : أشياء تستظلون بها .

أكنانا : أماكن تسكنون فيها .

سرابيل : ما يلبس من ثياب أو درع .

يستعتبون : يطلب منهم إرضاء ربهم .

السلم : الاستسلام والانقياد لحكمه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم نعم الله علينا وهى كثيرة لا تحصى .

٢ ـ أن نؤمن بأن الرسل عليهم السلام ليس عليهم إلا البلاغ وقد فعلوا .

٣ ـ أن نتعرف على مشهد من مشاهد بعث الناس يوم القيامة ، والظالم لا يخفف عنه العذاب يوم الحساب .

المحتوى التربوى :

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبيده ، بما جعل لهم من البيوت التى هى سكن لهم ،يأوون إليها ويسترون بها ، وينتفعون بها سائر وجوه الانتفاع .

يقول صاحب الظلال : « السكن والطمأنينة فى البيوت نعمة لا يقدرها حق قدرها إلا المشردون الذين لا بيوت لهم ولا سكن ولا طمأنينة ، وذكرها فى السياق يجىء بعد الحديث عن الغيب ، وظل السكن ليس غريباً عن ظل الغيب ، فكلاهما فيه خفاء وستر ، والتذكير بالسكن يمس المشاعر الغافلة عن قيمة هذه النعمة ... فهكذا يريد الإسلام البيت مكانا للسكينة النفسية

والاطمئنان الشعورى ، هكذا يريده مريحا تطمئن إليه النفس وتسكن وتأمن سواء بكفايته المادية للسكنى والراحة ، أو باطمئنان من فيه بعضهم لبعض ، وبسكن من فيه كل إلى الآخر ، فليس البيت مكانا للنزاع والشقاق والخصام ، إنما هو مبيت وسكن وأمن واطمئنان وسلام .

ومن ثم يضمن الإسلام للبيت حرمته ؛ ليضمن له أمنه وسلامه واطمئنانه ، فلا يدخله داخل إلا بعد الاستئذان ، ولا يقتحمه أحد ـ بغير حق ـ باسم السلطان ، ولا يتطلع أحد على من فيه لسبب من الأسباب ، ولا يتجسس أحد على أهله فى غفلة منهم أو غيبة ، فيروع أمنهم ، ويخل بالسكن الذى يريده الإسلام للبيوت » .

ويستعرض السياق من نعمة الأنعام ما يلبى الضرورات وما يلبى الأشواق ، فيذكر المتاع ، إلى جانب الأثاث ، والمتاع ولو أنه يطلق على ما فى الأرحال من فرش وأغطية وأدوات إلا أنه يشى بالتمتع والارتياح ، ويرق التعبير فى جو السكن والطمأنينة، وهو يشير إلى الظلال والأكنان فى الجبال ، وإلى السرابيل تقى فى الحر وتقى فى الحرب ، وهى الثياب من القطن والكتان والصوف وهذا ما يقى الحر ، والدروع من الحديد المصفى والزَّرد وغير ذلك وهذا ما يقى الحرب ، وهكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم وما تحتاجون إليه ، ليكون عونا لكم على طاعته وعبادته ، والإسلام استسلام وسكن وركون .

فإن أسلموا فيها ، وإن تولوا وشردوا فما على الرسول إلا البلاغ ، وليكونن إذاً جاحدين منكرين ، بعد ما عرفوا نعمة الله التى لا تقبل النكران ، فهم يعرفون أن الله تعالى هو المسدى إليهم ذلك وهو المتفضل به عليهم ، ومع هذا ينكرون ذلك ، ويعبدون معه غيره ، ويسندون النصر والرزق إلى غيره ، وأكثرهم الكافرون .

ويخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم فى الدار الآخرة ، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً ، وهو نبيها ، يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى ، ويبدأ السياق بموقف الشهداء من الأنبياء يدلون بما يعلمون مما وقع لهم فى الدنيا مع أقوامهم من تبليغ وتكذيب ، والذين كفروا واقفون لا يؤذن لهم فى حجة ولا استشفاع ، ولا يطلب منهم أن يسترضوا ربهم بعمل أو قول ، فقد فات أوان العتاب والاسترضاء ، وجاء وقت الحساب والعقاب ، ورأى الذين كفروا وأشركوا العذاب بأن يدخلوا النار ، فلا يفتر عنهم ساعة واحدة ، ولاهم يمهلون قبله لا يؤخر عنهم ولا يفتر .

ثم يقطع هذا الصمت رؤية الذين أشركوا لشركائهم فى ساحة الحشر ممن كانوا يزعمون أنهم شركاء لله ، وأنهم آلهة يعبدونهم مع الله أو من دون الله، فإذا هم يشيرون إليهم ويقرون فيقولون :

ربنا ، واليوم لا يقولون عن هؤلاء : إنهم شركاء لله ، إنما يقولون : هؤلاء شركاؤنا التى جعلناها شركاء نعبدها من دونك ، ويفزع الشركاء ويرتجفون من هذا الاتهام الثقيل ، فتبرأت منهم آلهتهم أحوج ما يكونون إليها ، فقالت لهم الآلهة : كذبتم ما نحن أمرناكم بعبادتنا كذبتهم آلهتهم لأنها كانت جماداً لا تعرف مَنْ عبدها ، أو كذبوهم فى تسميتهم شركاء وآلهة ، تنزيها لله عن الشرك .

وإلقاء السلم يعنى : الاستسلام لأمر الله وحكمه بعد الإباء والاستكبار فى الدنيا ، أى وألقى الذين كفروا يومئذ السلم لله أن استسلموا لله جميعهم ، فلا أحد إلا سامع مطيع ، أسلموا حيث لا ينفعهم إسلامهم ، وتركوا الإسلام حين كانوا مكلفين به ، وإذا المشركون لا يجدون من مفترياتهم شيئا يعتمدون عليه فى موقفهم العصيب ، وبطل عنهم ما كانوا يفترون من أن لله شركاء ، وأنهم ينصرون ويشفعون ، لقد ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراءً على الله ، فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير ، لقد استسلموا لحكم الله بعد إبائهم فى الدنيا ، فإن قيل : قد جاء إنكارهم كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ (المجادلة : ١٨) .

فالجواب كما قال القاشانى : « إن ذلك بحسب المواقف ، فالإنكار فى المواقف الأولى وقت قوة هيئات الرذائل ، وشدة شكيمة النفس فى الشيطنة وغاية البعد عن النور الإلهى للاحتجاب بالحجب الغليظة والغواشى المظلمة حتى لا يعلم أنه كان يراه ويطلع عليه ، ونهاية تكدر نور الفطرة حتى يمكنه إظهار خلاف مقتضاه .

والاستسلام فى الموقف الثانى بعد مرور أحقاب كثيرة من ساعات اليوم ، الذى كان مقداره خمسين ألف سنة ، حين زالت الهيئات ورقت ، وضعفت شرار النفس فى رذائلها ، وقرب من عالم النور ، لرقة الحجب ولمعان نور فطرته الأولى فيعترف وينقاد ، هذا إذا كان الاستعلام والإنكار لنفوس بعينها ، وقد يكون الاستسلام للبعض الذين لم ترسخ هيئات رذائلهم ولم تغلظ حجبهم ولم ينطفئ نور استعدادهم ، والإنكار لمن رسخت فيه الهيئات وقويت ، وغلبت عليه الشيطنة واستقرت ، وكثف الحجاب وبطل الاستعداد ، والله أعلم » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ نعم الله عز وجل لا تعد ولا تحصى ، ويجب على المسلم أن يقوم بشكر الله عليها .

٢ ـ كل نبى يشهد يوم القيامة على أمته بما أجابته فيما بلغها .

٣ ـ ليس فى يوم القيامة اعتذار للكافرين ولا طلب استرضاء لله ، ولا شفاعة ولا تخفيف عذاب ، ولا إمهال ، بل هو أخذ سريع للكافرين بلا حساب .

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ
الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ
أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ
هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ
وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ
بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ
اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ
غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا
بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ
اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن
يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

٢٧٧

معانى الكلمات :

الفحشاء : الذنوب القبيحة جداً .

البغى : التجبر والتطاول على الناس .

كفيلاً : شاهداً ، رقيبا ضامنا .

قوة : إبرام وإحكام .

أنكاثا : محلول الفتل .

دخلا : مفسدة وخيانة وخديعة .

أمة : جماعة .

أربى : أكثر وأعز وأوفر مالا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن للكافرين الذين منعوا الناس عن دين الله عقابًا أليما .

٢ ـ أن نؤمن بأن القرآن أنزل تبيانا لكل شىء من أمور الدين والدنيا .

٣ ـ أن نعلم أن فى القيامة يوم الفصل بين العباد .

المحتوى التربوى :

يبين الله ـ عز وجل ـ جزاء الذين جمعوا بين الكفر والصد عن سبيل الله ، فقال : الذين كفروا فى أنفسهم ، وحملوا غيرهم على الكفر ومنعوهم من الدخول فى الإسلام ، والكفر فساد ، والتكفير فساد ، وقد ارتكبوا جريمة كفرهم ، وجريمة صد غيرهم عن الهدى ، فضوعف لهم العذاب جزاء وفاقا ، ذلك شأن عام جميع الأقوام .

ثم يخصص السياق موقفا خاصا للرسول ﷺ مع قومه ، ففى ظل المشهد المعروض للمشركين ، والموقف العصيب الذى يكذب الشركاء فيه شركاءهم ، ويستسلمون لله متبرئين من دعوى عبادهم الضالين ، ويبرز السياق شأن الرسول مع مشركى قريش يوم يُبعث من كل أمة

obeikandi.com

شهيد عليهم من جنسهم ، ويؤتى بالرسول ﷺ شهيداً على أمته ، فاذكر يا محمد ﷺ ذلك اليوم وهوله ، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع .

ثم ذكر الله ما شرف به رسوله ﷺ فى الدنيا من إنزال هذا القرآن عليه ، وقد بين لنا فى هذا القرآن كل علم وكل شىء ، فما من قضية من القضايا التى يحتاجها الإنسان كفرد ، والإنسانية كلها إلا ولله فيها الحكم الحق ، ومجموع هذه الأحكام هى الإسلام ، يقول صاحب الأساس : « وإن أعظم ما وقع فيه المسلمون من أخطاء خطآن : الخطأ الأول : هو نسيانهم أنه ما من قضية من قضايا الوجود إلا ولله فيها الحكم الحق ، وأنه لا يسع المسلم أن يخرج عن حكم الله أو يتخلى عنه، ونتج عن هذا أن كثيرا من أبناء المسلمين ـ حكومات وأفراداً ـ أخذوا يستوردون الأفكار والعادات والقوانين والدساتير بدون قيود .

الخطأ الثانى : إنه قد غاب عن كثير من المسلمين أن القرآن إنما كان تبيانا لكل شىء بأن ذكر الحكم صراحة ، أو دل على الطريق الذى يسلك للوصول إلى الحكم من سنة أو قياس أو إجماع ، ومن ثم قامت مدارس الاجتهاد التى تضع نظريات استنباط الحكم وألفت الكتب الكثيرة التى تتحدث عن الأحكام ، فأخطأ بعض الناس بأن نظروا إلى عمل الأئمة المجتهدين ومدارسهم على أنه خارج عن الدين أو زائد عليه » .

ثم أكمل الله وصف كتابه بعد أن بين أنه تبيان لكل شىء ، أنه فيه دلالة إلى الحق ، ورحمة للمسلمين وبشارة لهم بالجنة ، فلا عذر لمعتذر ، فمن شاء الهدى والرحمة فليسلم قبل أن يأتى اليوم المرهوب ، فلا يؤذن للذين كفروا ولاهم يستعتبون .

فبعد أن أقام الله الحجة على الخلق بوجوب الدخول فى الإسلام كله ، وذكرهم بما أعده للكافرين والمسلمين يوم القيامة، وأقام الحجة على مجىء يوم القيامة، يقرر القرآن ويوجه ويربى ، ويذكر بجوانب من الإسلام ينبغى الدخول فيها ، فيأتى الأمر بالعدل فى كل شىء ؛ فى أداء الحقوق ، والقيام بالواجبات ، فيحدد الحقوق ، ويحدد الواجبات ؛ فى السياسة والاقتصاد والاجتماع ، فلا عدل إلا ما أمر به ، ولا يتحقق العدل فى الحياة البشرية إلا بإقامة كتابه وسنة رسوله ﷺ ويندب إلى الإحسان وهو : معنى زائد على العدل ، فالعدل فى كل شىء حسن ، والإحسان فعل الأحسن، ويأمر بصلة الأرحام ، وإعطاء ذى القرابة بأن توصل رحمه وهى مقصودة بذاتها فى شريعة الله .

وينهى عن الذنوب المفرطة فى القبح ، وعن المنكر الذى تنكره العقول السليمة والفطر المستقيمة ، والبغى وهو العدوان على الناس ، سواء كان العدوان ماديا كأكل أموالهم ظلما أو

معنويا بالتطاول على الناس كبراً أو عُجْبا ، والله يأمركم بها يأمركم به من الخير ، وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر لعلكم تتعظون بمواعظ الله إليه .

ويأمر سبحانه بالإيفاء بعهد الله ، وأعظم العهود هو البيعة لرسول الله ﷺ ثم لخلفائه الراشدين ولأئمة العدل ، ويدخل فى الآية كل عهد التزم به المسلمون ، ويأمر بالمحافظة على الأيمان بعد توثيقها وتأكيدها باسم الله ، والمراد بالأيمان هنا : الأيمان الداخلة فى العهود والمواثيق لا الأيمان التى هى واردة على حث أو منع ، وهذه الأيمان المؤكدة الله شاهد ورقيب على أصحابها والله يعلم بركم وحنثكم فيجازيكم به ، ولا تكونوا فى نقض الأيمان ، كالمرأة التى تنحى على غزلها بعد أن أحكمته وأبرمته فتجعله أنقاضا ، فلا تتخذوا أيمانكم خديعة ومكراً ومفسدة وخيانة ، بسبب أن تكون أمة هى أزيد عدداً وأوفر مالا من الأمة التى عاقدتموها ، قال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء ، فيجدون أكثر منهم وأعز ، وينقضون حلف هؤلاء ، ويحالفون أولئك الذين هم أكثر منهم وأعز ، فينقضون حلف هؤلاء ، ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز فنهوا عن ذلك .

والله ـ عز وجل ـ إنما يختبركم بكونهم أربى لينظر ـ وهو أعلم ـ أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما وكّدتم من أيمان الحلف ، أم تغترون بالكثرة أو بالثروة فتنقضون وتنكثون ، وليبين لكم إذا جازاكم يوم القيامة على أعمالكم بالثواب والعقاب ﴿ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ ، فاحذروا أن تخالفوا دين الله وشرعه ، ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة حنيفة مسلمة متصافية لا تباغض بينها ولا شحناء ، والله يضل من علم منه اختيار الضلالة ، ويهدى من علم منه اختيار الهداية ، ومن ثم لم تكونوا أمة واحدة ، واقتضى ذلك تحالفات وعهوداً ، وغير ذلك ولتسألن يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها على الفتيل والنقير والقطمير ، و السؤال سؤال تبكيت ومجازاة ، لا استفسار وتفهم ، وهو المنفى فى غير هذه الآية ، أو فى موقف دون موقف ، وكل مسؤول عما يعمل ، فلا يكون الاختلاف فى العقيدة سببا فى نقض العهود ، فالاختلاف له أسبابه المتعلقة بمشيئة الله ، والعهد مكفول مهما اختلفت المعتقدات .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ تشريف النبى ﷺ وتكريمه ومقامه الرفيع بشهادته على أمته وشفاعته للخلق .

٢ ـ الإسلام دين العدل والاعتدال والتوسط فلا إفراط ولا تفريط .

٣ ـ أهمية إتقان الأعمال ، وحرص الإسلام على إجادتها ، ورفع كفاءة العاملين .

٤ ـ حرص الإسلام على إشاعة الحب والمودة فى المجتمع المسلم .

وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا
وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ
هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ
وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ
مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ
أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ
فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ
عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا
سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ
﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ
بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾
٢٧٨

معانى الكلمات :

ينفد : يفنى ويذهب .

الرجيم : المطرود من رحمة الله .

سلطان : تسلط .

يتولونه : يتخذونه وليا ونصيراً لهم .

هم به : هم بسببه .

مفتر : كذاب .

روح القدس : الروح المطهر جبريل عليه السلام .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف جزاء الصابرين على الطاعات وعلى تحمل الأذى فى سبيل عقيدتهم .

٢ ـ أن نعلم أن كل عمل صالح يقرب من الله ويحقق السعادة فى الدنيا والآخرة مطلوب .

٣ ـ أن نتعلم الحذر من وساوس الشيطان والترغيب فى الاستعاذة بالله منه فى كل عمل من أعمال الدنيا والآخرة.

المحتوى التربوى :

كرر الله ـ سبحانه ـ النهى عن اتخاذ الأيمان خديعة ومكراً ، تأكيداً عليهم وإظهاراً لشناعة الفعل ، ولئلا تزل قدم بعد ثبوتها ، وهذا مثلٌ لمن كان على الاستقامة فحاد عنها وزل عن طريق الهدى ، بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصد عن سبيل الله ؛ لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به ، لم يبق له وثوق بالدين ، فانصد بسببه عن الدخول فى الإسلام .

قال صاحب الظلال : « واتخاذ الأيمان غشا وخداعا يزعزع العقيدة فى الضمير ، ويشوه صورتها فى ضمائر الآخرين : فالذى يقسم وهو يعلم أنه خادع فى قسمه ، لا يمكن أن تثبت له

عقيدة ولا أن تثبت له قدم على صراطها، وهو فى الوقت ذاته يشوه صورة العقيدة عند من يقسم لهم ثم ينكث .. . ولقد دخلت فى الإسلام جماعات وشعوب بسبب ما رأوا من وفاء المسلمين بعهدهم ، ومن صدقهم فى وعدهم ، ومن إخلاصهم فى أيمانهم ، ومن نظافتهم فى معاملاتهم ، فكان الكسب أضخم بكثير من الخسارة الوقتية الظاهرية التى نشأت عن تمسكهم بعهودهم، ولقد ترك القرآن وسنة الرسول ﷺ فى نفوس المسلمين أثراً قوياً وطابعاً عاما فى هذه الناحية ، ظل هو طابع التعامل الإسلامى الفردى والدولى المتميز .

روى أنه كان بين معاوية بن أبى سفيان وملك الروم أمد ، فسار إليهم فى آخر الأجل (حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم أغار عليهم وهم غارون لا يشعرون) فقال عمر بن عتبة : الله أكبر يا معاوية ، وفاء لا غدر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عقدة حتى ينقضى أمدها » فرجع معاوية بالجيش ، والروايات عن حفظ العهود ـ مهما تكن المصلحة القريبة فى نقضها ـ متواترة مشهورة .

وقد ترك هذا القرآن فى النفوس ذلك الطابع الإسلامى البارز ، وهو يرغب ويرهب ، وينذر ويحذر ، ويجعل العهد عهد الله ، ويصور النفع الذى يجره نقضه ضئيلا هزيلا ، وما عند الله على الوفاء عظيما جزيلا ، ويذكر بأن عرض الحياة الدنيا وزينتها ، فإنها قليلة ، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له ، وجزاء الله وثوابه خير لمن رجاه ، وآمن به وطلبه ، وحفظ عهده رجاء موعوده ، وكل ما فى الدنيا يفرغ وينقضى فإنه إلى أجل معدود محصور مقدر متناه ، وما عند الله من ثواب فى الجنة دائم لا ينقطع ، لا يحول ولا يزول ، ويقوى الله العزائم على الوفاء والصبر لتكاليف الوفاء ، ويعد الصابرين أجراً حسنا ، ويأتى هذا الوعد فى معرض القسم من الرب عز وجل أنه يجازى الصابرين بأحسن أعمالهم ويتجاوز عما وقع منهم من عمل سيئ ، ليكون الجزاء على أحسن العمل دون سواه .

وبمناسبة العمل والجزاء يعقب بأن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة فى الدنيا ، والأجر الحسن الكامل فى الآخرة .

قال ابن كثير : « هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحا ـ وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه من ذكر أو أنثى من بنى آدم ، وقلبه مؤمن بالله ورسوله ، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله ـ بأن يحييه الله حياة طيبة فى الدنيا ، وأن يجزيه بأحسن ما عمله فى الدار الآخرة، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أى جهة كانت » .

قال المهايمى : « فيتلذذ بعمله فى الدنيا فوق تلذذ صاحب المال والجاه ، ولا يبطل تلذذه إعساره ؛ إذ يرضيه الله بقسمته فيقنعه ويقل اهتمامه بحفظ المال وتنميته ، والكافر لا يهنأ عيشه

بالمال والجاه ؛ إذ يزداد حرصا وخوف فوات ، ويجزون بالأحسن فى الآخرة ، فلا يقال : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا ، بل يكمل جزاء أعمالهم الأدنى بحيث يلحق بالأعلى » .

قال القاسمى : « وعندى أن الحياة الطيبة هى الحياة التى فيها ثلج الصدور بلذة اليقين وحلاوة الإيمان ، والرغبة فى الموعود والرضا بالقضاء ، وعتق الروح مما كانوا يستعبدون له ، والاستكانة إلى معبود واحد ، والتنوّر بسر الوجود الذى قام به ، وغير ذلك من مزاياه المقررة فى مواضعها ، هذا فى الدنيا ، وأما فى الآخرة فله الجزاء الأحسن والثواب الأوفى » .

ثم لما ذكر سبحانه العمل الصالح والجزاء عليه أتبعه بذكر الاستعاذة التى تخلص بها الأعمال الصالحة عن الوساوس الشيطانية ، وتخصيص قراءة القرآن من بين الأعمال الصالحة بالاستعاذة عند إرادتها للتنبيه على أنها لسائر الأعمال الصالحة عند إرادتها أهم ؛ لأنه إذا وقع الأمر بها عند قراءة القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كانت عند إرادة غيره أولى ، وتوجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ للإشعار بأن غيره أولى منه بفعل الاستعاذة ؛ لأنه إذا أمر بها لدفع وساوس الشيطان مع عصمته فكيف بسائر أمته ؟ والأمر فى الآية للندب .

والذين يتوجهون إلى الله وحده ، ويخلصون قلوبهم لله ، لا يملك الشيطان أن يسيطر عليهم ، مهما وسوس لهم فإن صلتهم بالله تعصمهم أن ينساقوا معه وينقادوا إليه ، وقد يخطئون لكنهم لا يستسلمون فيطردون الشيطان عنهم ، ويثوبون إلى ربهم من قريب ، إنما سلطانه على أولئك الذين يجعلونه وليهم ويستسلمون له بشهواتهم ونزواتهم ، ومنهم من يشرك به .

ويخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم ، وأنه لا يتصور منهم الإيمان ، وقد كتب عليهم الشقاوة ، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها ، قالوا للرسول ﷺ : أنت كذاب ، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، وقد قال تعالى مجيبا لهم ؛ قل : ما يمكن أن يكون هذا افتراء ، وقد نزله جبريل عليه السلام من ربك لا من عندك بالحق والصدق والعدل ، ليثبت المؤمنين فيصدقوا بما نزل أولا ، وثانيا : وتخبت له قلوبهم ، وجعله هاديا وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الدين الإسلامى يسوى بين الرجل والمرأة فى الحقوق والواجبات .

٢ ـ الإسلام يحث على العمل للدنيا ، والاستعداد للآخرة .

٣ ـ الشيطان ضعيف لا يثبت أمام قوة الإيمان .

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ
ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ
ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ
﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ
وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا
فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ
وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى
ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ
لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟
وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾

معانى الكلمات :

يلحدون إليه : يميلون إليه وينسبون إليه أنه يعلمه .

أعجمى : غير عربى .

استحبوا : اختاروا وفضلوا .

طبع : ختم .

لا جرم : حقا أو لا محالة .

فتنوا : ابتلوا وعذبوا لإسلامهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على اتهام المشركين لرسول الله ﷺ ورد الله تعالى عنه .

٢ ـ أن نعلم أن الذين لا يؤمنون بالآخرة لا يهديهم الله إلى طريق النجاة .

٣ ـ أن نتيقن أن الله يتولى الصالحين وينصرهم ويغفر لهم ويرحمهم .

المحتوى التربوى :

يذكر السياق فرية أخرى للكافرين بزعمهم أن الذى يعلم الرسول ﷺ هذا القرآن إنما هو بشر ، سموه باسمه ، واختلفت الروايات فى تعيينه ، قيل : كانوا يشيرون إلى رجل أعجمى كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش ، وكان بياعا يبيع عند الصفا ، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشىء ، وذلك كان أعجمى اللسان لا يعرف العربية ، أو أنه كان يعرف الشىء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لابد منه .

ولهذا قال الله ـ تعالى ـ رادا عليهم فى افترائهم : كيف يمكن لمن لسانه أعجمى أن يعلم محمداً هذا الكتاب العربى المبين ؟ وهذا المقالة منهم يصعب حملها على الجد ، وأغلب الظن أنها كيد من كيدهم الذى كانوا يدبرونه وهم يعلمون كذبه وافتراءه ، وإلا فكيف يقولون ـ وهم أخبر بقيمة

obeikandl.com

هذا الكتاب وإعجازه ـ إن أعجمياً يملك أن يعلم محمداً هذا الكتاب ، ولئن كان قادراً على مثله ليظهرن به نفسه .

ويعلل القرآن هذه المقولة الضالة فيقول : إن هؤلاء الذين لم يؤمنوا بآيات الله لم يهدهم الله إلى الحقيقة فى أمر هذا الكتاب ، ولا يهديهم إلى الحقيقة فى شىء ما ، بكفرهم وإعراضهم عن الآيات المؤدية إلى الهدى ، ولهم بعد ذلك الضلال المقيم والعذاب الأليم ، ثم يثنى بأن الافتراء على الله لا يصدر إلا من مثل هؤلاء الذين لا يؤمنون ، ولا يمكن أن يصدر من الرسول الأمين ، فالكذب جريمة فاحشة لا يقدم عليها مؤمن ، والرسول ﷺ أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علما وعملا وإيمانا وإيقانا .

ولما بين تعالى فضل من آمن وصبر على أذى المشركين فى المحاماة عن الدين، تأثره ببيان ما للردة وإيثار الضلال على الهدى ، من الوعد الشديد بهذه الآيات ، واستثنى المكره المطمئن القلب بالإيمان بالله ورسوله ، فإنه إذا وافق المشركين بلفظ لتعرضه قوىٌ وإيذاء شديد وتهديد بقتل ، فلا جناح عليه ، إنما الجناح على من شرح بالكفر صدراً أى طاب به نفسا واعتقده ، استحبابا للحياة الدنيا الفانية .

أى إيثاراً لها على الآخرة الباقية ، فذاك الذى له من الوعيد ما بينته الآيات الكريمة ؛ من غضب الله عليهم أولا وعذابه العظيم لهم وهو عذاب النار ثانيا ، وعدم هدايتهم باختيارهم الكفر ثالثا ، ورابعاً بالطبع على قلوبهم بقساوتها وكدورتها فلم ينفتح لهم طريق الفهم ، وعلى سمعهم وأبصارهم بسد طريق المعنى المراد من مسموعاتهم وطريق الاعتبار من مبصراتهم إلى القلب،فلم يؤثر فيهم شىء من أسباب الهداية من طريق الباطل من فيض العلم وإشراق النور ، ولا من طريق الظاهر بطريق التعلم والتعليم والاعتبار من آثار الصنع ، وخامسا بكونهم هم الغافلين بالحقيقة ، لعدم انتباههم بوجه من الوجوه ، وامتناع تيقظهم من نوم الجهل بسبب من الأسباب .

وجلى أن كل نقمة من هذه الخمس على انفرادها من أعظم الحواجز عن الفوز بالخيرات والسعادات فكيف بها كلها ؟

قال الرازى : « ومعلوم أنه تعالى إنما أدخل الإنسان الدنيا ليكون كالتاجر الذى يشترى بطاعاته سعادات الآخرة، فإذا حصلت هذه الموانع عظم خسرانه ، فلهذا قال : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ » أى الذين ضاعت دنياهم التى استنفذوا فى تحصيلها وسعهم ، وأتلفوا فى طلبها أعمارهم ، وليسوا من الآخرة فى شىء إلا فى وبال التحسرات .

قال ابن كثير : « فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرها لما ناله من ضرب وأذى ، وقلبه يأبى ما يقول ، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله ، وعن ابن عباس : أن هذه الآية نزلت فى عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ ، فوافقهم على ذلك مكرها ،

وجاء معتذرا إلى النبى ﷺ فأنزل الله هذه الآية ، ولهذا اتفق العلماء على أنه يجوز أن يوالى المكره على الكفر إبقاء لمهجته ، ويجوز له أن يستقتل ، كما كان بلال ﷺ يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل ، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره فى شدة الحر ، ويأمرونه أن يشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول : أحد ، أحد . ويقول : والله لو أعلم كلمة هى أغيظ لكم منها لقلتها ، ﷺ وأرضاه .

والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه ، ولو أفضى إلى قتله ، كما قال الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبد الله بن حذافة السهمى أحد الصحابة: إنه أسرته الروم فجاؤوا به إلى ملكهم، فقال: تنصر وأنا أشركك فى ملكى وأزوجك ابنتى .

فقال له : لو أعطيتنى جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين ما فعلت . فقال : إذاً أقتلك . قال : أنت وذاك ، فأمر به فصلب ، وأمر الرماة فرموه قريبا من يديه ورجليه ، وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى ، ثم أمر به فأنزل ، ثم أمر بِقِدرٍ وفى رواية : ببقرة من نحاس ، فأحميت وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر ، فإذا هو عظام تلوح ، وعرض عليه فأبى ، فأمر به أن يلقى فيها ، فرفع البكرة ليلقى فيها فبكى فطمع فيه ودعاه فقال له : إنى إنما بكيت لأن نفسى إنما هى نفس واحدة ، تلقى فى هذه القدر الساعة فى الله ، فأحببت أن يكون لى بعدد كل شعرة فى جسدى نفس تعذب هذا العذاب فى الله .

وفى بعض الروايات : إنه سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أياما ، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه ، ثم استدعاه فقال : ما منعك أن تأكل ؟ فقال : أما إنه قد حلَّ لى ولكن لم أكن لأشمتك فىَّ ، فقال له الملك : فقبِّل رأسى وأنا أطلقك . فقال : وتطلق معى جميع أسارى المسلمون ؟ قال نعم : فقبل رأسه ، فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده ، فلما رجع قال عمر بن الخطاب ﷺ : حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله حذافة ، وأنا أبدأ فقام فقبل رأسه .

ويذكر السياق من كانوا مستضعفين بمكة ، مهانين فى قومهم ، وقد وافقوهم على الفتنة ، ثم أمكنهم الخلاص بالهجرة ابتغاء رضوان الله وغفرانه ، ثم جاهدوا معهم الكافرين وصبروا ، فأخبر الله أنه بعد إجابتهم إلى الفتنة غفور لهم رحيم بهم يوم معادهم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ الله ـ تعالى ـ لا يهدى من أعرض عن ذكره ، وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ .

٢ ـ من كفر مكرها بالتلفظ باللسان فقط وقلبه مطمئن بالإيمان بالله ورسوله ، فليس بكافر ، ولا إثم عليه .

٣ ـ شدة إيذاء المسلمين الأوائل وصبرهم وتحملهم ، ثم جهادهم حتى حملوا إلينا هذا الدين العظيم لنقوم بدورنا .

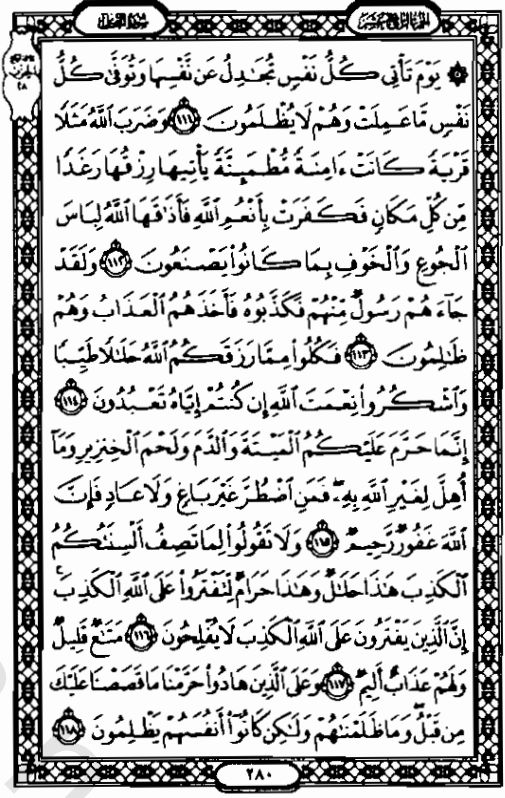
يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ
نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا
قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا
مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ
ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ
جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ
ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا
وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾
إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ
أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ
ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ
مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾
٢٨٠

معانى الكلمات :

رغداً : طيبا واسعا أو هنيئا لا تعب فيه .

الدم : الدم المسفوح السائل .

لحم الخنزير : أى الخنزير بجميع أجزائه ومثله الكلب .

اضطر : دعته الضرورة إلى التناول منه .

غير باغ : لا يطلب المحرم للتلذذ به .

ولا عاد : ولا يزيد عن قدر الضرورة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مشهد من مشاهد يوم القيامة .

٢ ـ أن نعلم ما حرمه الله تعالى على الناس .

٣ ـ أن نؤمن بأن المشركين لن يفوزوا لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

المحتوى التربوى :

يذكر السياق يوم القيامة الذى تشغل فيه كل نفس بأمرها ، لا تتلفت إلى سواها ، هذا اليوم الذى من مشاهده دفاع كل نفس عن ذاتها لا يهمها أمر غيرها،وتعطى كل نفس جزاء ما عملت، وهو تعبير يلقى ظل الهول الذى كل امرئ مشغول بنفسه ، يجادل عنها لعلها تنجو من العذاب ، ولا غناء فى انشغال ولا جدال ، إنما هو الجزاء ، كل نفس وما كسبت ، وهم لا يظلمون .

ثم يضرب الله تعالى مثلا لتصوير حال مكة ، وقومها المشركين ، الذين جحدوا نعمة الله عليهم ؛ لينظروا المصير الذى يتهددهم من خلال المثل الذى يضربه لهم .

قال صاحب الظلال : « وهى حال أشبه شىء بحال مكة ، جعل الله فيها البيت ، وجعلها بلداً حراما من دخلها فهو آمن مطمئن ، لا تمتد إليه يد ولو كان قاتلا ، ولا يجرؤ أحد على إيذائه وهو فى جوار بيت الله الكريم ، وكان الناس يتخطفون من حول البيت وأهل مكة فى حراسته

وحمايته آمنون مطمئنون ، كذلك كان رزقهم يأتيهم هنيا هنيئا من كل مكان مع الحجيج ومع القوافل الآمنة ، مع أنهم فى واد قفر جدب غير ذى زرع ، فكانت تجبى إليهم ثمرات كل شىء فيتذوقون طعم الأمن وطعم الرغد» .

والمثل الذى يضربه الله منطبق على حالهم ، وعاقبة المثل أمامهم ، مثل القرية التى كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، وكذبت رسوله فألبسها الله الخوف وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليهم ثمرات كل شىء ، ويأتيها رزقها من كل مكان ، وألبسها الخوف وذلك بأنهم بدلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة من سطوة سراياه وجيوشه ، وجعلوا كل ما لهم فى سفال ودمار ، حتى فتحها الله عليهم ، وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول الذى بعثه الله فيهم منهم .

يقول صاحب الظلال : « ويجسم التعبير الجوع والخوف فيجعله لباسا ، ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقا ؛ لأن الذوق أعمق أثراً فى الحس من مساس اللباس للجلد ، وتتداخل فى التعبير استجابات الحواس فتضاعف مس الجوع والخوف لهم،ولذعه وتأثيره وتغلغله فى النفوس ، لعلهم يشفقون من تلك العاقبة التى تنتظرهم لتأخذهم وهم ظالمون » .

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب وبشكره على ذلك ، فإنه المنعم المتفضل به ابتداء ، الذى يستحق العبادة وحده لا شريك له ، ثم ذكر ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم فى دينهم ودنياهم ، من الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما ذبح على غير اسم الله ، ومع هذا فمن احتاج فى غير بغى ولا عدوان ، فالله يغفر هذا الاضطرار ، ولا يعاقب رحمة منه تعالى .

يقول الفخر الرازى : « إنه تعالى حصر المحرمات فى هذه الأشياء الأربعة فى هذه السورة ؛ لأن لفظة « إنما » تفيد الحصر وحصرها أيضا فى هذه الأربعة فى سورة الأنعام فى قوله : ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ ﴾ (الأنعام ١٤٥) ، وهاتان السورتان مكيتان .

وحصرها أيضا فى هذه الأربعة فى سورة البقرة ؛ لأن هذه الآية بهذه اللفظة وردت فى سورة البقرة ، وحصرها أيضاً فى سورة المائدة ، فإنه تعالى قال فى أول هذه السورة : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (المائدة : ١) فأباح الكل إلا ما يتلى عليهم ، وأجمعوا على أن المراد بقوله : ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ هو قوله تعالى فى تلك السورة : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ (المائدة : ٣) فذكر تلك الأربعة المذكورة فى تلك السور الثلاث .

ثم قال : ﴿ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ (المائدة : ٣) وهذه الأشياء داخلة فى الميتة ، ثم قال : ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾ (المائدة : ٣) وهو أحد الأقسام الداخلة تحت قوله : ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ (المائدة : ٣) .

فثبت أن هذه السور الأربع دالة على حصر المحرمات فى هذه الأربع : سورتان مكيتان وسورتان مدنيتان ، فإن سورة البقرة مدنية ، وسورة المائدة من آخر ما أنزل الله تعالى بالمدينة ،

فمن أنكر حصر التحريم فى هذه الأربع إلا ما خصه الإجماع والدلائل القاطعة ، كان فى محل أن يخشى عليه ؛ لأن هذه السورة دلت على أن حصر المحرمات فى هذه الأربع كان شرعا ثابتا فى أول أمر مكة ، وآخرها وأول المدينة وآخرها ، وأنه تعالى أعاد هذا البيان فى هذه السور الأربع قطعا للأعذار ، وإزالة للشبهة ، والله أعلم » .

ذلك حد الحلال والحرام الذى شرعه الله فى المطعومات ، فلا تخالفوه اتباعا لأوهام الوثنية ، ولا تكذبوا فتدعوا تحريم ما أحله الله ، فالتحريم والتحليل لا يكونان إلا بأمر من الله ، فهما تشريع ، والتشريع لله وحده لا لأحد من البشر ، وما يدعى أحد لنفسه حق التشريع بدون أمر من الله إلا مفتر ، والمفترون على الله لا يفلحون فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فلا تقولوا للكذب الذى تصفه ألسنتكم وتحكيه : هذا حلال وهذا حرام ، فهذا حلال وهذا حرام حين تقولونها بلا نص هى الكذب عينه ، الذى تفترونه على الله ، والذين يفترون على الله الكذب ليس لهم إلا المتاع القليل فى الدنيا ومن ورائه العذاب الأليم ، والخيبة والخسران ، ثم يجرؤ ناس بعد ذلك على التشريع بغير إذن من الله ، وبغير نص فى شريعته يقوم عليه ما يشرعونه من القوانين ، وينتظرون أن يكون لهم فلاح فى هذه الأرض أو عند الله.

فأما ما حرمه الله على اليهود فى قوله من قبل فى سورة الأنعام ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ (الأنعام : ١٤٦) فقد كان عقوبة خاصة بهم لا تسرى على المسلمين .

ولقد استحق اليهود تحريم هذه الطيبات عليهم بسبب تجاوزهم الحد ومعصيتهم لله ، فكانوا ظالمين لأنفسهم لم يظلمهم الله فاستحقوا ذلك ، أى استحقوا ما حرمناه عليهم عقوبة لهم على معاصيهم ، فموضوع التحريم والتحليل من أخطر المواضيع فى الحياة البشرية ، ومن ثم فإن الله عز وجل هو الذى يحل ويحرم وقد جعل الله عز وجل التحريم والتحليل النابعين عن الهوى من عمل الشيطان .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ كل إنسان يوم القيامة يكون مشغولا بنفسه فقط ، لا يدافع إلا عنها .

٢ ـ أحل الله الأكل من الرزق الحلال الطيب ، وحرم ما فيه مضرة وأذى فى الدين أو الدنيا .

٣ ـ على المؤمن أن يشكر ربه على ما أنعم به عليه ربه ، فإن الشكر يزيد النعم ويبارك فيها .

٤ ـ من يسر الإسلام وسماحته أنه لا يؤاخذ المضطر إذا أكل من شىء محرم بقدر الضرورة .

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ
بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾
إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ
﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ
مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ
اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا
كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾
وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ
لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ
﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾
٢٨١

معانى الكلمات :

بجهالة : بجهل وسفه وعناد .

أمة : معلما للخير أو مؤمنا وحده أو إماماً.

قانتا لله : مطيعا خاضعا له تعالى .

حنيفا : مائلا عن الباطل إلى الدين الحق .

اجتباه : اصطفاه واختاره للنبوة .

ملة إبراهيم : شريعته وهى التوحيد .

جُعل السبت : فرض تعظيمه .

ضيق : ضيق صدر وحرج .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم عفو الله ـ تعالى ـ عمن يعمل المعاصى والسيئات بجهل وسفه ثم رجع إلى الله تائبا.

٢ ـ أن نعلم أن الله فرض تعظيم يوم السبت على اليهود الذين اختلفوا فيه ، وسيحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون .

٣ ـ أن يعلم المسلم أن الله معه فلا يحزن على من خالفه ، ولا يغتم من مكروه ، فإن الله كافية وناصره .

المحتوى التربوى :

أخبر تعالى هذه الأمة عن سنته فى حق العصاة : أن من تاب منهم إليه تاب الله عليه تكرما وامتنانًا ، فمن تاب ممن عمل السوء بجهالة ولم يصر على المعصية ، ولم يلج فيها حتى يوافيه الأجل ؛ ثم أتبع التوبة القلبية بالعمل الصالح ، فإن غفران الله يسعه ورحمته تشمله، والنص عام يشمل التائبين العاملين من اليهود المذنبين وغيرهم إلى يوم الدين .

obeikandi.com

وبمناسبة ما حرم على اليهود خاصة ، ومناسبة ادعاء مشركى قريش أنهم على ملة إبراهيم فيما يحرمونه على أنفسهم ويجعلونه للآلهة ، يعرج السياق على إبراهيم عليه السلام يجلو حقيقة ديانته ، ويربط بينها وبين الدين الذى جاء به محمد ﷺ ، ويبين ما اختص به اليهود من المحظورات التى لم تكن على عهد إبراهيم .

والقرآن الكريم يصوره عليه السلام نموذجا للهداية والطاعة والشكر والإنابة لله ، ويقول عنه هنا : إنه كان أمة ، واللفظ يحتمل أنه يعدل أمة كاملة بما فيها من خير وطاعة وبركة ، ويحتمل أنه كان إمامًا يقتدى به فى الخير ، وهما قريبان فالإمام الذى يهدى إلى الخير هو قائد أمة وله أجره وأجر من عمل بهدايته ، فكأنه أمة من الناس فى خيره وثوابه لا فرد واحد ، وهو قانت لله طائع خاشع عابد ، وهو حنيف متجه إلى الحق مائل إليه ، وما كان من المشركين فلا يتعلق به ولا يتمسح فيه المشركون ، وهو شاكر لأنعم الله بالقول والعمل ، لا كهؤلاء المشركين الذين يجحدون نعمة الله قولا ، ويكفرونها عملاً ويشركون فى رزقه لهم ما يدعون من الشركاء ، ويحرمون نعمة الله عليهم اتباعا للأوهام والأهواء ، وقد اختصه الله واصطفاه للنبوة وهداه إلى الإسلام لله وحده بالعبادة والشريعة ، وقد جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج إليه فى إكمال حياته الطيبة ؛ من نبوة وأموال وأولاد ، وذكر حسن وخلود على ألسنة أهل التوحيد، وقبول فى قلوب الناس جميعا ، وهو فى الآخرة لمن أهل الجنة . هذا هو النموذج للمسلم الكامل ، وما أعطاه الله نموذجًا للحياة الطيبة التى وعدها عباده الصالحين ، هذا النموذج مستجمع لخصال الخير : خاشع ، مطيع ، مائل عن كل دين إلا دين الإسلام ، موحِّد ، شاكرللنعمة ، مستقيم على صراط الله ، صالح ، وجزاؤه الحياة الطيبة فى الدنيا ، والجزاء الحسن فى الآخرة ، هذا هو النموذج الكامل للمسلم ، والنموذج الكامل للدخول فى الإسلام كله ، ومن ثم جعله الله قدوة لرسوله محمد ﷺ ، وهذا كذلك من إكرامه فى الدنيا ، ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ .

وإذاً فالنموذج للمسلم الكامل إبراهيم عليه السلام ، وبعثة رسولنا ﷺ إنما هى تجديد لدين إبراهيم، وإحياء له فى التوحيد والقدوة ، وأما تحريم السبت فهو خاص باليهود الذين اختلفوا فيه ؛ وليس من ديانة إبراهيم ، وليس كذلك من دين محمد السائر على نهج إبراهيم ، وإنما فرض تعظيم يوم السبت على اليهود الذين اختلفوا فيه ، وسيحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون .

ثم يتوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ وارث ملة إبراهيم عليه السلام ، الداعية إلى الإسلام ، وهو خطاب لكل فرد من أمته يعلمه كيفية الدعوة إلى الإسلام ، وذلك يكون بالمقالة الصحيحة المحكمة ، وهو الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة، أو بالخطاب المناسب لكل إنسان بحسبه ، أو بالقدر الذى بينه فى كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها .

وبالموعظة الحسنة التى تدخل إلى القلوب برفق ، وتتعمق المشاعر بلطف ، لا بالزجر والتأنيب فى غير موجب ، ولا يفضح الأخطاء التى قد تقع عن جهل أو حسن نية ، فإن الرفق فى

الموعظة كثيراً ما يهدى القلوب الشاردة ، ويؤلف القلوب النافرة ، ويأتى بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ .

وبالجدل بالتى هى أحسن بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح حتى يطمئن إلى الداعى ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة فى الجدل ، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق ، والجدل بالحسنى يشعر المجادل أن ذاته مصونة ، وقيمته كريمة ، وأن الداعى لا يقصد إلا كشف الحقيقة فى ذاتها ، والاهتداء إليها فى سبيل الله ، لا فى سبيل ذاته ونصرة رأية ، وهزيمة الرأى الآخر ، ويشير النص القرآنى إلى أن الله هو الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو الأعلم بالمهتدين ، فلا ضرورة للجاجة فى الجدل إنما هو البيان والأمر بعد ذلك لله ، فهو يعلم الشقى منهم والسعيد ، وكتب ذلك عنده وفرغ منه .

هذا هو منهج الدعوة ودستورها ما دام الأمر فى دائرة الدعوة باللسان والجدل بالحجة ، فأما إذا وقع الاعتداء على أهل الدعوة فإن الموقف يتغير ، فالاعتداء عمل مادى يدفع بمثله إعزازًا لكرامة الحق ، ودفعا لغلبة الباطل على ألا يتجاوز الرد على الاعتداء حدوده إلى التمثيل والتفظيع ، فالإسلام دين العدل والاعتدال ، والدفع عن الدعوة فى حدود القصد والعدل يحفظ لها كرامتها وعزتها ، فلا تهون فى أنفس الناس ، والمؤمنون بالله أمناء على إقامة الحق فى هذه الأرض وتحقيق العدل بين الناس ، وقيادة البشرية إلى الطريق القويم ، فكيف ينهضون بهذا كله وهم يعاقبون فلا يعاقبون ويعتدى عليهم فلا يردون ؟ !

ومع تقرير قاعدة القصاص بالمثل ، فإن القرآن الكريم يدعو إلى العفو والصبر ، حين يكون المسلمون قادرين على دفع الشر ووقف العدوان ، فى الحالات التى قد يكون العفو فيها والصبر أعمق أثرا ، وأكثر فائدة للدعوة ، ولأن الصبر يحتاج إلى مقاومة للانفعال ، وضبط للعواطف ، وكبت للفطرة ، فإن القرآن يصله بالله ويزين عقباه ؛ فهو الذى يعين على الصبر وضبط النفس ، والاتجاه إليه هو الذى يطامن من الرغبة الفطرية فى رد الاعتداء بمثله ، ويوصى القرآن الرسول ﷺ وهى وصيته لكل داعية من بعده ـ ألا يأخذه الحزن إذا رأى الناس لا يهتدون، فإنما عليه واجب يؤديه ، وألا يضيق صدره بمكرهم فإنما هو داعية لله ، فالله حافظه من المكر والكيد، لا يدعه للماكرين الكائدين، وهو مخلص فى دعوته لا يبتغى من ورائها شيئا لنفسه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الدعوة إلى الله تكون بالحكمة والموعظة الحسنة لا بالعنف ولا بالغلظة .

٢ ـ المجادلة والمناظرة للخصوم يجب أن تكون عند الضرورة .

٣ ـ العدل فى القصاص من غير ظلم أو زيادة ، والصبر والعفو أفضل وبخاصة عند المقدرة .

٤ ـ الله تعالى ـ يؤيد المتقين والمحسنين بنصره ومعونته ، وهدايته وتوفيقه .